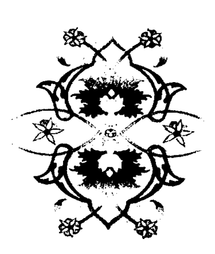
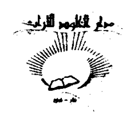


قيس وليلى
الحب الخالد

قصة حقيقية حدثت فى عهد
الخليفة عبد الملك بن مروان







الكتـــــاب : **قيس وليلى .. الحب الخالد**

المقـــــاس : 17 X 24

الطبعـــــة : الأولى

عدد الصفحات : 144

الناشـــــر : الدار المصرية للعلوم – دار الخلود للتراث

رقم الايـداع : 17373 /2007

الترقيم الدولى : 978-977-6229-13-6

الدار المصرية للعلوم

١٣ شـارع اسـماعيـل أبو جبـل

خلف مستشفى الجمهورية – عابدين

☎ ٢٣٩٣٦٤٧٨ – فاكس ٢٣٩٣٦٠٧٩

seh_egypt@hotmail.com



دار الخلود للتراث

٤٢ سوق الكتاب الجديد بالعتبة – القاهرة

☎ ٢٥٩١٩٧٢٦ – فاكس ٠١٨١٦٠٧١٨٥

dar_alkholoud@yahoo.com




بسم الله الرحمن الرحيم
إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين
صدق الله العظيم



مقدمة الناشر

أغلب قصص الحب المشـــهورة حدثت في صدر الإسلام، وأشهرها على الإطلاق حكاية ليلى والمجنون .. والمجنـــون هو قيس بن الملوح ابن عم ليلى، يلعبان في الصبا، ويرعيان الغنم معا في الباديـــة العربية، كان ذلك في القرن الأول الهجرى، في كانت البادية العربية تعيش في عزلة نسبية .

لقد انتشر الاسلام، واثر في نفوس البدو، وغير من مفاهيمهم الاجتماعية، وبدأت العلاقة بين الرجل والمرأة تتخذ شكلا جديدا، الحياة كلها اختلفت صورها عن أيام العهد الجاهلي القريب . لقد جاء الاسلام فرفع مترلة المرأة العربية . لم تعد واحدة من أساليب اللهو التى اعتاد عليها البدوي ليحقق وجوده الضائع في الصحراء المترامية الأطراف إلى جانب الخمر والميســـر، إن الدين الجديد يحرم عليه الخمر ويحرم عليه الميسر، ويفرض عليه قيودا دينية واجتماعية وخلقية . ولكن الفراغ قاتل .. والشباب مارد في الجسد يود أن ينطلق، ونافذته القلب .. وكل شئ من حول الشباب يدعو للحب ويطالب به، فينظر حوله، ولا يرى إلا بنات أعمامه، أفمن رفيقات اللعب في الصبا، واول من يتعرف اليهن من نوع الانثى .. ويختار الشاب احداهن .. تسحره نظرة منها أو التفاتة أو كلمة عابرة .. ويميل القلب نحوها ولكن فجأة تختفي بنت العم تماما .. لقد حجبتها التقاليد داخل خيمتها، لا تخرج منها إلا بصحبة حارسة، وإلا للضرورة القصوى، الها الآن تعد لدخلو الحياة الزوجية لا لعب برئ ولاضحكات طفولية ولا دعابات متبادلة بل صمت .. وإحساس مرير بالوحدة ..

هذه الظروف ما هى إلا تربة خصبة لنمو العاطفة واشـــتعالها .. فيســـتبد الوجد والشوق إلى المحبوبة ويزداد التعلق بها، وتسيطر صورتها على خيال الحبيب ولا يفكر الا فيها .. إن حياته كلها أحلامه وأشواقه تتقطر وتتركز في نقطة واحدة : أن يراها . ويتحول الشاب الذى كان يزهو بفتوته بين أقرانه، إلى شـــبح هزيل يجبـــو الصحراء، تتقاذفه العلل والاوهام، يردد أبيات شعر رائعة عن حبه وعن ذكريات طفولته ويذكر فيها ليلى بنت عمه كثيراً ..

أخيراً يتقدم قيس إلى عمه طالباً الزواج من ابنته ليلى .. وبدلا من أن يفرح العم ويرحب، إذا به يرفض، ويصر على الرفض . لماذا ؟ لأن التقاليد تمنع العرب من الموافقة على زواج ابنته من رجل تشبب بها أى تغزل فيها في شعره !!

وتتـــزوج ليلى من فتى من قبيلة ثقيف.. صحبها معه إلى الطائف، ولعل ذلك الحل كان بوحى من أبيها الذي شاء أن يبعدها عن مسرح الاحداث .

ويتـــرك قيس وحيدا، فيصاب بالجنون . ولا شـــك أن عقله عجز تماما عن فهم أو تقبل ذلك المنطـــق الذي خضع له عمه، وكل القبيلـــة .. التي لم يحاول أحد فيها أن يلين من صلابة رأس ذلك الرجل، أو يوفق بين الرأسين في الحلال ..

ولا شـــك أن ذلك العم كانت لديه أســـباب عديدة .. لكن أحدا لا يخبرنا عنها . أننا نعرف فقط أن التقاليد العربية في ذلك الوقت هي التى أملت عليه كلمة لا، وأن هذه الكلمة تعلقت بلســـانه، وسدت أذنيه وأغمضت عينيه فلم ير ابن اخيه يهيم في الصحراء، ولم يرق قلبه وهو يســـتمع لأرقى الشعر يردده كل الناس بعد قيس، يصور فيه لوعته ويذيب شبابه الغض قطرة قطرة على رمال الصحراء التى لا ترتوي . ثم يلقى حتفه في واد مهجور، بعيداً عن أهله، وليلى التى عذبته بحبها .

ولاشك أنه كان شخصية فريدة من نوعها .. أو لعلها المبالغات التي يولع بها الناس فيزينون بها قصص الحب تعبيراً عما تختزنه قلوبهم من كبت وحرمان يقولون : إن قيســـاً كان يغمى عليه كلما ذكر اســـم ليلى، وسواء كان الحديث عنها بمكروه أو بخير فهو يغشى عليه بمجرد سماعه اسمها ! ويقولون إنه وقف ذات يوم يتحدث إلى ليلى وفي يده جمرة من نار فأخذت النار تحرق رداءه حتى أتت عليه ووصلت إلى جســـمه وقيس لا يشعر ! وفي أواخر أيامه حكي عن قيس أنه عاش مع الوحش فأنس إليه وفضله على بنى الإنسان، وأن الوحوش أيضاً صارت تأنس إليه ! أى أن قلوبهم رقت لحاله، بينما ظلت قلوب أهله كالحجر الذى لم يتفتت ولم يذب لســـماع أشعار قيس الرائعة.

قصة قيس بن الملوح المجنون بحب ليلى العامرية
ولادته ونشأته وقبيلته ودياره

مجنون ليلى هو قيس بن الملوح بن مزاحم بن عدس بن ربيعة بن جعدة بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة من بلاد نجد من قبيلة بني عامر. ولد في سنة أربعمائة وأربعين هجرية في عهد خلافة الخليفة عبد الملك بن مروان من خلفاء بني أمية. ونشأ قيس مترعرعاً فطناً ذكياً وورث عن أبيه شعر العرب وأخبارهم. وعلمه أبوه ببلدة اسمها القطبف قرب ديار نجد فتفوق في الشعر والأدب ومعرفة النجوم للسير ليلاً. فكان رجلاً رزيناً دمث الأخلاق محباً للمكارم. ومن الدليل أن اسمه قيس هو قول صاحبته ليلى فيه :

ألا ليت شعري والخطوب كثيرة ٠ متى رحل قيس مستقل وراجع

وكان مديد القامة جعد الشعر أبيض اللون. ولم ينله الهزال والجنون وتغير اللون إلا من العشق والهيام بحب ليلى.

أما صاحبته فهي بنت مهدي بن سعد بن مهدي بن ربيعة ابن الحريش بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة وتكنى أم مالك.
قال قيس فيها :



قيس وليلى في عهد الصبا وهما يرعيان الغنم

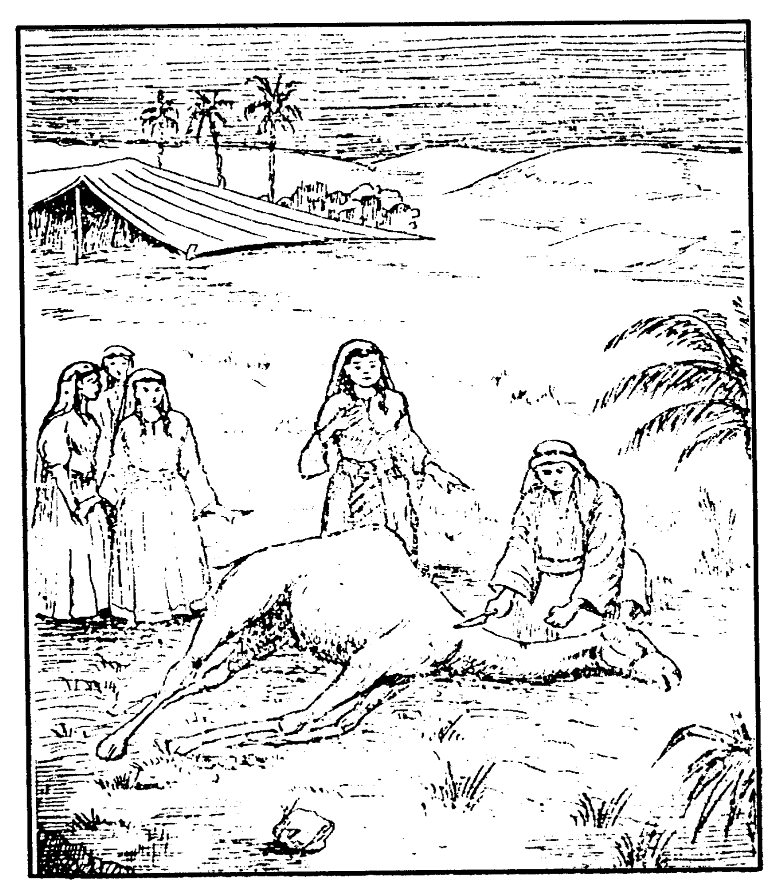
تكاد بلاد الله يا أم مالك   بما رحبت يوما عليَّ تضيق

وهي ابنة عم قيس وكانت سكناهما في بلدة اسمها النجوع قرب ديار نجد. ولدت سنة أربعمائة وأربعة وأربعين هجرية وكان قيس أكبر منها بأربعة أعوام. وكانت بيضاء اللون ولها عينان ساحرتان بشكل جذاب معتدلة القوام. وكانت هي وقيس صبيان تجمع بينهما القرابة والرحم فتعلق كل واحد منهما بصاحبه. وكانا يرعيان مواشي أهلهما ولم يزالا على تلك الحالة حتى كبر كل منهما فحجبت عنه ليلى فجن جنونه بها وازداد شغفه بحبها وضاق صدره. فأنشد قائلاً :

تعلقت ليلى وهي ذات ذؤابة   ولم يبد للأتراب من ثديها حجم
صغيرين نرعى البهم يا ليت أننا   إلى اليوم لم نكبر ولم تكبر البهم

قيل ومر على قيس وقت طويل من الزمن لم ير فيه ليلى وذلك من يوم أن حجبت عنه. وجرى عليه ما لم يجر على قلب بشر وهو يكابد ألم الفراق. ولما اشتد به ذلك خرج من داره وركب ناقته وكان عليه حلتان من حلل الملوك الفاخرة فمر بامرأة من قومه يقال لها كريمة وكان عندها نسوة يتحدثن فأعجبهن حسنه وجماله فدعونه للنزول والحديث معه فنزل وكانت ليلى بين تلك النسوة فجعل يحادثهن ويقلب طرفه حولهن. فبينما هو كذلك إذ وقعت عينه على ليلى فلم يصرف عنها طرفا وشاغلته عنها فلم يشتغل. فأنشد قائلاً :

سحرتني ليلى بسواد عينيها   إنما السحر في سواد العيون
سحرتني بجيدها وبشعر   وبوجه ذي بهجة مسنون
كأقاح برملة ضربته   ريح جوّ بديمة ودجون
تردع القلب ذا العزاء وتُسْلي   برد أنيابها ردوع الحزين



قيس ينحر ناقته ، وليلى والنسوة يتطلعن إليه

وجبين وحاجب لم يصبه نتف خط كأنه خط نون
اتبعتهم بطرف عين وحتى ما أتى دونهم بخرق بطين
عنوج لا يلائمنا وفيهم غداة تحملوا قلب رهين
فظل الوجد يشهوني كأني أخو ربع مؤرّق أو طعين
فرمتني فأقصدتني بسهم شكّ مني الفؤاد بعد الوتين
ورمتها يداي مني بنبل كيف اصطاد عاقلا في حصون
تنتحيني فلا ترى، وترى النا س بصعب ممنّع مأمون
ذي محاريب أحرزت أن تراها كل بيضاء سهلة العرنين

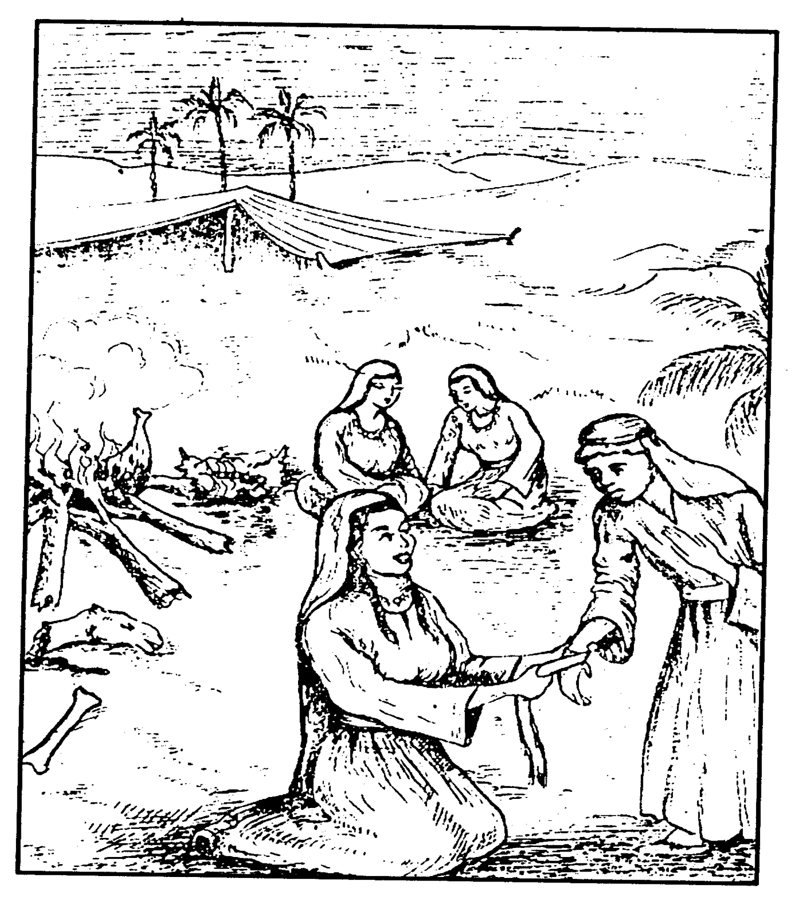
فلما سمعت ليلى شعره ذرفت عيناها الدموع وكانت تخفي دموعها بطرف قناعها فعلم قيس ما عندها له من الحب. وكانت النسوة ينظرن إليهن. فجاء قيس نحو ليلى.

ثم قال لها هل عندكن ما تأكلن فقالت له ليلى لا. فعمد إلى ناقته فنحرها وقطعها فقامت ليلى وجاءته تمسك معه اللحم فجعل يحز بالمدية في كفه وهو شاخص فيها حتى أعرق كفه فجذبته من يده ولم يدر. ثم قال لها ألا تأكلين الشواء قالت نعم: فقام قيس وطرح من اللحم شيئاً على الغضا وأقبل يحادثها فقالت له ليلى انظر إلى اللحم هل استوى أم لا فمد قيس يده إلى الجمر وجعل يقلب بها اللحم فاحترقت يده ولم يشعر. فلما علمت ما داخله من الحب صرفته عن ذلك ثم شدت يده بهدب قناعها وقد ذهب عقله وتحكم عشقها من قلبه.

فأقام معهن بياض ذلك اليوم إلى أن أقبل المساء. فبينما هم على ذلك إذ أقبل عليهن غلام شاب جميل الطلعة مَليح الوجه له عينان ساحرتان



قيس يقطع اللحم ، وليلى تأخذ السكين من يده



ليلى تشد بهدب قناعها يد قيس عندما احترقت

وفوق خده خال أسود وهو من حيهَن يدعى منازل وكان يسوق غنما له. فلما رأته النسوة وما هو فيه من الجمال انصرفن إليه وأقبلن بوجوههن عليه يقلن له كيف ظللت يا منازل : وكانت ليلى أيضاً ممن انصرفن مع تلك النسوة نحو منازل وتركن قيساً وحيداً.

فلما رأى قيس ما حل به اغتاظ غيظاً شديداً وقام مغضباً متجهاً إلى منازل قائلاً له من شدة غيظه: هلم نتصارع أو قال نتناضل إلى حيث يرينك ولا تراهن فنظر الفتى إلى وجه قيس وعلم ما حل به من الغيظ فخجل منه واستحى. ثم إن منازل قام وترك النسوة وركب راحلته وساق غنمه وذهب فأنشد قيس من غيظه قائلاً :

أأعقر من جرا كرائم ناقتي ووصلي مقرون بوصل منازل
إذا جاء قعقعن الحلي ولم أكن اذا جئت اعطى صوت تلك الخلاخل
متى ما انتضلنا بالسهام نضلته وإن يرم رشقا عندها فهو ناضلي

قال الراوي : ثم ان ليلى لما رأت قيساً قام مغضباً وسمعت ما قاله من الشعر وعلمت أنه تكدر من ذلك صاحت به واستدعته للمحادثة معها. وكان قد داخلها الحب فقالت له هل لك في محادثة من لا يصرفه عنك صارف فقال ومن لي بذلك. وكانت ليلى مغرمة بأحاديث الناس وأشعارهم وكان قيس هو أروى الناس فكانت تسأله وهو يجيبها إلى ذلك فزاد بينهما الحب والغرام ثم افترقا وذهب كل منهما إلى بيته. واشتعل قلب كل واحد منهما بحب الآخر والتهبت قلوبهما بنار الغرام ولم يصدق كل منهما متى يصبح الصباح. وحينما طلعت الشمس من بين تلك الروابي والجبال خرجت ليلى ومعها بعض جواريها وأسدلت على وجهها النقاب وجلست بفناء دارها تنتظر لعل قيساً يمر عليها.

قال ابن الكلبي. فبينما هي كذلك وإذا بقيس قد أقبل راكباً على ناقة حمراء وعليه حلة فاخرة فوقف وسلم. فدعته إلى النزول وقالت له هل لك في محادثة من لا يصرفه عنك منازل ولا غيره فقال أي لعمري ونزل وفعل مثل ما فعله بالأمس. فأرادت أن تعلم هل لها عنده مثل ما له عندها فجعلت تعرض عن حديثه ساعة بعد ساعة وتحدث غيره ممن كان معها من الجواري. وقد علق بقلبه مثل حبها إياه وشغفه بها واستملحها. فبينما هي تحدثه إذ أقبل فتى من الحي فدعته ليلى وسارّته سراً طويلاً ثم قالت للفتى انصرف. ثم نظرت إلى وجه قيس فرأته قد تغير وامتقع لونه وشق عليه فعلها فأنشدت ليلى قائلة :

كلانا مظهر للناس بغضاً وكل عند صاحبه مَكينُ
تبلغنا العيون بما أردنا وفي القلبين ثم هَوَى دفين
وأسرار الملاحظ ليس تخفي وقد تُغرى بذي اللحظ الظنون
وكيف يفوت هذا الناسَ شيءٌ وما في الناسِ تظهره العيونُ
فطب نفساً وقر عيناً فإن هواكِ في قلبي مَعِينُ

فعندما سمع قيس مقالها شهق شهقة شديدة وخر مغشياً عليه فمكث على ذلك ساعة وهي تعاني فيه وتنضح عليه الماء حتى أفاق. وعندما أفاق قيس من غشيته أنشد قائلاً :

أحبك حباً لو تحبين مثلهُ أصابك من وجدٍ على جنون
حليف مع الغزلان أما نهاره فَحزن وأما ليله فأنين
فيا نفس صبراً لا تكوني لجوجـ ـة فما قد قضى الرحمن فهو يكون

ثم نظر إلى ليلى فتأوه واستعبر وتبادرت دموعه تجري على خديه فأنشد قائلاً :



ليلى بفناء دارها .. تنتظر قيس ..

ويلبسنا الليل البهيم إذا دجا ونبصر ضوء الصبح والفجر ساطع
وافرح ان تمسى بخير وان يكن بها الحدث العادي ترعني الروائع
وقد كنت أبكي والنوى لا أظنه بنا وبكم لم ندر ما الدهر صانع
فوا كبدي من شدة الشوق والأسى ووا كبدي إني إلى الله راجع
وأعجل للاشفاق حتى يشفني مخافة شحط الدار والشمل جامع
وأعمد للأرض التي من ورائكم لترجعني يوماً إليك الرواجع
فيا قلب صبراً واعترافاً لما ترى ويا حبها قع بالذي أنت واقعٌ
نهاري نهار الواهين صبابة وليلى تنبو فيه عني المضاجع
وللحب آيات تبين للفتى شحوب وتبري من يديه الأشاجع
وما كل ما منيت نفسك خالياً تلاقي ولا كل الذي أنت تابع
تداعت لك الأحزان من كل وجهة فحنّ كما حنّ الطيور السواجع
كأن بلاد الله مَا لم تكن بها وإن كان فيها الناس فقر بلاقع
ألا إنما أبكي لما هو واقع وهل جزع من وشك بينك نافع
إذا نحن أنفدنا البكاء عشية فموعدنا قرن من الشمس طالع

قال الراوي : وكان قيس يأتي ليلى كل يوم فلا يزال عندها نهاره أجمع حتى إذا أمسى انصرف إلى داره فخرج ذات يوم يريد زيارتها فلما قرب من منزلها لقيته جارية عسراء فتطير منها وأنشد قائلاً :

وكيف يرجى وصل ليلى وقد جرى بجد القوى والوصل أعسر حاسر
صديع العصا صعب المرام إذا انتحى لوصل امرئ جذبت عليه الأواصر

ويلبسنا الليل البهيم إذا دجا ونبصر ضوء الصبح والفجر ساطع
وافرح ان تمسى بخير وان يكن بها الحدث العادي ترعني الروائع
وقد كنت أبكي والنوى لا أظنه بنا وبكم لم ندر ما الدهر صانع
فوا كبدي من شدة الشوق والأسى ووا كبدي إني إلى الله راجع
وأعجل للاشفاق حتى يشفني مخافة شحط الدار والشمل جامع
وأعمد للأرض التي من ورائكم لترجعني يوماً إليك الرواجع
فيا قلب صبراً واعترافاً لما ترى ويا حبها قع بالذي أنت واقعَ
نهاري نهار الواهين صبابة وليلى تنبو فيه عني المضاجع
وللحب آيات تبين للفتى شحوب وتبري من يديه الأشاجع
وما كل ما منيت نفسك خالياً تلاقي ولا كل الذي أنت تابع
تداعت لك الأحزان من كل وجهة فحنّ كما حنّ الطيور السواجع
كأن بلاد الله مَا لم تكن بها وإن كان فيها الناس فقر بلاقع
ألا إنما أبكي لما هو واقع وهل جزع من وشك بينك نافع
إذا نحن أنفدنا البكاء عشية فموعدنا قرن من الشمس طالع

قال الراوي : وكان قيس يأتي ليلى كل يوم فلا يزال عندها نهاره أجمع حتى إذا أمسى انصرف إلى داره فخرج ذات يوم يريد زيارتها فلما قرب من منزلها لقيته جارية عسراء فتطير منها وأنشد قائلاً :

وكيف يرجى وصل ليلى وقد جرى بجد القوى والوصل أعسر حاسر
صديع العصا صعب المرام إذا انتحى لوصل أمرئ جذبت عليه الأواصر

ثم سار إلى ليلى في غد فحدثها بقصته وطيرته ممن لقيه وأنه يخاف تغير عهدها وانتكاثه ثم بكى. فقالت له لا تجزع حاش لله من تغير عهدي بك لا يكون والله ذلك أبداً إن شاء الله. فلم يزل عندها يحدثها بقية يومه ووقع له في قلبها مثل ما وقع لها في قلبه، فجاءها يوماً كما كان يجيئها وأقبل يحدثها فأعرضت عنه وأقبلت على غيره بحديثها تريد بذلك محنته وأن تعلم ما في قلبه فلما رأى ذلك جزع جزعاً شديداً حتى بان في وجهه وعرف فيه. فلما نظرت ما جرى له خافت عليه وأقبلت نحوه بحديثها وأنشدت قائلة :

بجمال وجهك وهو بدر مشرق قلبي عليك كما علمت وأشفق

فسرى عنه ذلك وعلم ما في قلبها. فقالت له إنما أردت أن أمتحنك مرة أخرى وأن الذي لك عندي أكثر من الذي لي عندك واني اعطي نفسي عهداً أن لا أجالس بعد يومي هذا رجلاً سواك حتى أذوق الموت إلا أن أكره على ذلك. قال ثم أتى المساء وانصرف كل منهما إلى داره وانصرف قيس وهو من أشد الناس سروراً وأقرهم عيناً فأنشد قائلاً :

إذا عبتها شبهتها البدر طالعا وحسبك من عيب لها شَبَه البدرِ
لقد فضلت ليلى على الناس مثل ما على ألف شهر فضلت ليلة القدر
إذا ما مشت شبراً من الأرض أرجفت من البهر حتى ما تزيد على شبر
لها كفل يرتج منها إذا مشت ومتن كغصن البان منضمر الخصر

قال الراوي وحدثني بعض العشيرة قال قلت لقيس بن الملوح قبل أن يختلط عقله ما أعجب شيء أصابك في وجدك بليلى قال طرقتنا ذات ليلة أضياف ولم يكن عندنا لهم أدم فبعثني أبي إلى منزل أبي

ليلى وقال لي اطلب منه أدما فأتيته فوقفت على حبائه فصحت به فقال ما تشاء فقلت طرقتنا أضياف ولا أدم عندنا لهم فأرسلني أبي نطلب منك أدماً فقال يا ليلى أخرجي إليه ذلك النحي واملئي له إناءة من السمن فأخرجته وكان معي قعب فجعلت تصب السمن فيه ونحن نتحدث فألهين بالحديث وهي تصب السمن وقد امتلأ القعب ولا نعلم جميعاً وهو يسيل حتى استنقعت أرجلنا في السمن.

قال ثم أتيتهم في ليلة ثانية أطلب ناراً وكنت متلفعاً بِبُرد لي فأخرجت لي ناراً في عطبة فأعطتنيها ووقفنا نتحدث فلما احترقت العطبة خرقت من بردي وجعلت النار فيها فلما احترقت خرقت أخرى واذكيت بها النار حتى لم يبق علي من البرد شيء وما أعقل ما أصنع ثم أنشدت قائلاً :

أمستقبلي نفح الصبا ثم شائقي ببُردِ ثَنايا أمَّ حسان شائق
كأن على أنيابها الخمر شجها بماء الندى من آخر الليل عاتق
وما ذقته إلا بعيني تفرسا كما شيم في أعلى السحابة بارق

قال الراوي فبينما هما كذلك وكان أبوها قد استبطأها فصاح عليها وناداها فلم تنتبه إليه ولا ردت عليه فخرج ليكشف الخبر وقد أنكر عليهم الأمر فوجدهما على تلك الحالة وهما يتناجيان الغرام وسمع ما قاله قيس من الشعر فاستعظم الأمر ولطم ليلى على وجهها وأدخلها إلى الدار وطرد قيسا ثم انهال على ليلى بالشتم ومنعها الزيارة في الليل والنهار من دار قيس ومقابلته وحجبها عنه خوفا من الفضيحة والعار فكان قيس بعد ذلك يغتنم الفرص والغفلات ويجتمع بليلى.

قال وقد تسامع أهلُ الحي بعشق قيس لليلى وأشعاره فيها وعلم أبوها بذلك فذهب والد ليلى إلى حي قيس ومنع قيسا من إتيانها حيث كان



ليلى وقيس يتحدثان .. والسمن يسيل بين أرجلهما

العرب يرون أنه غير منكر أن يتحدث الفتيان مع الفتيات.فلما شاع ذلك الأمر بين العرب تقدم القوم من حي ليلى إلى قيس وزجروه وقالو له ليس لك بعد اليوم أن تأتي حي ليلى أو تدخل دار أبيها ما دمت بهذا الحال وقد تسامع عنك وعنها الناس فلو تناسيتها رجونا أن تسلوا قليلاً. فقال لهم لمّا سمع مقالتهم وقد غلب عليه البكاء ثم أقبل على القوم فقال ان الذي بي ليس بهين فأقلوا من كلامكم فلست بسامع فيها ولا مطيع قال فلما سمع والد ليلى ما قاله قيس غضب وقام داخلاً على ليلى وزجرها وأمرها بأن تحتجب عن ابن عمها قيس وأقسم إن رآها معه أو ذهبت إلى داره ليمثلن بها شر تمثيل.ثم ذهب والد ليلى إلى الخليفة عبد الملك بن مروان ورفع إليه أمره وما صدر من قيس في ذلك الشأن.فكتب عبد الملك بن مروان كتابا إلى عامله الذي كان والياً على القوم يأمر بإهدار دم قيس إذا هو زار ليلى بعد ذلك اليوم فلما قرأوا على قيس كتاب الخليفة عبد الملك ووقف على حقيقة أمره تنهد وتحسر وأنشد قائلاً :

فإن يحجبوها أو يحل دون وصلها ... مقالة واش أو وعيد أمير
فلن يمنعوا عينيَّ من دائمِ البكا ... ولم يذهبوا ما قد أجنَّ ضميري
إلى الله أشكو ما ألاقي من الهوى ... ومن كرب تعتادني وزفيرِ
ومن حرق للحب في باطن الحشا ... وليل طويل الحزن غير قصير
سأبكي على نفسي بعين غزيرة ... بكاء حزين في الوثاق أسير
وكنا جميعاً قبل أن يظهر النوى ... بأنعَمِ حالَى غبطة وسرورِ
فما برح الواشون حتى بدت لنا ... بطونَ الهوى مقلوبةً بظهور
لقد كنت حسب النفس لو دام وصلنا ... ولكنما الدنيا متاعُ غرورِ

قال الراوي : ولما يئس قيس من زيارة ليلى بعد ما سمعه أخذه القلق



والد ليلى يقرأ أوامر الخليفة بإهدار دم قيس.. إن عاد إلى الحى ..

والوساوس وخرج هائماً على وجهه في القفار وما زال يمشي بين تلك الروابي والتلال حتى أشرف على الهلاك وقد زال منه العقل والحواس حتى أصبح مثلاً بين الناس فلحقه أبوه وبنو عمه وإخوته وقالوا له يا قيس اتق الله ودع عنك هذه الفتاة. وألحّوا عليه بالكلام والرجوع معهم فلم يقبل منهم وقال لهم دعوني يا قوم من العتب والملام فإني لا أختار عليها أحداً ولا أميل إلا إليها ولو قطّعوني بالأسنة. فتركوه ورجعوا إلى خيامهم ثم أنشد قائلاً بعد ذهابهم.

تقول العدا لا بارك الله في العدا ... لقد صار عن ليلى وِرثت رسائله
فلو أصبحت ليلى تدب على العصا ... لكان هوى ليلى جديداً أوائله

قال الراوي: ولما بلغ ليلى شعر قيسٍ وما حلّ به وأنه خرج هائماً على وجهه في البراري أخذتها الشفقةُ والخوف على قيس وكانت دموع عينيها لا تنشف لأنها كانت مشغوفة بحبه فأرسلت إلى قيس جارية لها تخبره بما حلّ بها من شدة الفراق وضيق الصدر وتواتر الأحزان والأسقام وكثرة البكاء وأن حياتها في هذه الدنيا صارت قصيرة حيث لم يعد لها صبر على فراقك وقد اكتوى قلبها بنيران الاشتياق ولم يبق في الأمر إلا التسليم والانقياد على ما قدّر علينا ثم ختمت كلامها للجارية بهذه الأبيات :

قد كنت حاذرة للدهر عارفة ... أن سوف يطلبني بالرمي مفتقدا
حتى رماني بمن قد جَلَّ عن صفتي ... فما أرى لي به ويلي الغداة بدى
لُقْتُ الدواة بماء العين ثم به ... كتبت ما يكتب المجهود إذ جهدا
هذا الوداع لمن روحي الفداء له ... قد خفت ألا أراه بعده أبدا

ثم امرت الجارية أن تسير إلى قيس وتطلبه في البراري والهضاب قال

وخرجت الجارية سراً تتسلّل من بين الخيام قاصدة الروابي والقفار ولم تزل تطلب قيس في جوانب ذلك البر المقفر حتى التقت به وقد التجأ إلى كهف جبل عظيم وهو مستلق على ظهره وغارق في بحار فكره وسمعته وهو يقول :

أحن إلى ليلَى وإن شطّت النوى ... بِليلَى كما حنّ اليراع المثقّبُ
يقولون ليلَى عذّبتكَ بحبِّهـا ... ألا حبذا ذاك الحبيب المعذِّبُ

قال ثم دنت منه الجارية وحيت بالسلام فلما رآها قيس عرفها وقام لها وسألها عن ليلى فقالت له إن ليلى قد أرسلتني إليك لأخبرك بما هي فيه وما تعانيه من أجلك وأنها خائفة عليك. فقال قيس للجارية وكان اسمها مرجانة يا مرجانة أخبري ليلى أني لا أزال أسير هواها وانظري ما أنا فيه من الكدر والقلق وكثرة البكاء واني تركت الأهل والأوطان وانفردت في هذه الروابي والكهوف أهيم مع الوحوش والغزلان وانتقل من مكان إلى مكان ذليلاً مهاناً أتذوق مرارة الفراق كل ذلك في هوى ليلى فقاتل الله أباها الغدار وبلاه الويل والدمار لأنه كان سبب هذا الفراق بيني وبينها ولم يكفه ذلك حتى رفع أمري إلى الخليفة وأمر بإهدار دمي فوحق ليلى وما لها من الحب عندي لا أبالي بكل ذلك وإني على العهد مقيم وعلى مدى الحياة حبيب وختم كلامه بهذه الأبيات فأنشد قائلاً :

خليليَّ قد رضتُ الأمورَ وقِستُها ... بنفسي وبالفتيان كلّ مكـان
بُلينَا بهجرانٍ ولم يُر مثلُنـا ... من النـاس إنسانـان يهتجـران
أشدَّ مصافاةٍ وأبعدَ عن قِلى ... وأعصى لواشٍ حين يكتنفان
يبين طرفانا الذي في نفوسنا ... إذا استجمعت بالمنطق الشفتان

بمن لو رآه غائباً لفديته ... ومن لو رآني غائباً لفداني
واني ممنوع من النوم مدنف ... وعيناي من وجد الأسى تكفان
فوالله ما أدري أكل ذوي هوى ... على شكلنا أم نحن مبتليان
فلا تعجبا مما بي اليوم من هوى ... فبي كل يوم مثل ما تريان
خليلي عن أي الذي كان بيننا ... من الوصل أو ماض الهوى تسلان
وكنا كريمي معشر حم بيننا ... هوى فحفظناه بحسن صيان
تذود النفوس الحائمات عن الهوى ... وهن بأعناق إليه ثوان
خليليّ لا والله ما لي بالذي ... تريدان من هجر الحبيب يدان
ولا لي بالهجر اعتلاق إذا بدى ... كما أنتما بالبين معتلقان
ولا لاهيا يوماً إلى الليل كله ... ببيض لطيفات الخصور رمان
أعيني يا عيني حتام أنتما ... بهجران أم العمر تختلجان
فما أنتما إلا على طليعة ... على قرب أعدائي كما تريان
فلو أن ليلى أضحت بالعراق مقيمة ... أو بمصر ودوني الشحرُ شحرُ عمان
إذن لرجوتُ الله يجمعُ بيننا ... وإنا على ما كنّا ملتقيان
من البيض نجلاءُ العيون كلاهما ... مقيم وعيشي ضارب بجران
أفي كل يوم أنت رامٍ بلادها ... بعينين إنسانا هُمَا غَرِقانِ
إذا ذرفتْ عيناي قالت صحابتي ... لقد وَلعت عيناك بالهَمَلانِ
ألا فاحملاني بارك اللهُ فيكما ... إلى حاضرِ الروحاءِ ثم ذراني
فمن مبلغاً عني الحبيبَ رسالةً ... بأن فؤادي دائمُ الخفقان

قال ثم إن الجارية لما سمعت شعر قيس وما هو فيه تحسرت عليه وعلى ليلى وما حدث لهما من نكبات الزمان بكت رحمة لقيس وقالت له ويحك استشعر الصبر واستبق مودة الحبيب بالكتمان واعلم أنك لا تصل إليها بعد اليوم إلا بالستر وأرجع إلى الأوطان فان التهتك يقطع

موارد الغبطة وليس للمهتوك ألفة. قال لما سمع قيس قولها هم أن يزج بنفسه من ذروة الجبل ويسقي نفسه كأس الموت قبل أوانه فمسكت به مرجانة وأقسمت عليه أن يرجع لأهله وذويه ولعل يا قيس بعد ذلك يكون الفرج. فلما سمع قيس من مرجانة ذلك القول أنشد قائلاً :

وإن تك ليلى قد أتى دون قربها ... حجاب منيع ما إليه سبيل
فإنّ نسيم الجو يجمع بيننا ... ونبصر قرن الشمس حين تزول
وأرواحنا بالليل في الحلم تلتقي ... ونعلم أنّا بالنهار نقيل
وتجمعنا الأرض القرار وفوقنا ... سماء ترى فيها النجوم تجول
إلى أن يعود الدهر سلما وتنقضي ... تراتٌ يراها عندنا وذهول

قال ثم إن مرجانة رجعت إلى ليلى وأخبرتها بما رأت وما سمعت من شعر قيس وعن أحواله وما يقاسيه من شوق وهيام فتضاعف هم ليلى لما سمعت وتحسرت على ابن عمها قيس فكانت تبكي عليه الليل والنهار ودامت على ذلك الحال مدة كبيرة وقد مضت عليها أيام لا تعلم عن قيس شيئاً لأن والدها لما رأى منها ذلك وضع عليها الرقباء وقد أخذها القلق واصفر لونها وتغير وجهها وجرى عليها ما لم يجري على قلب حبيب فسلمت امرها وصبرت على ما رقمه القلم. هذا ما كان من أمر ليلى. وأما ما كان من أمر قيس فإنه لما جن عليه الليل أنشد قائلاً :

حمامة بطن الواديين ترنمي ... سقاك من الغر الغوادي مطيرها
أبيني لنا لا زال ريشك ناعماً ... وما زلت في خضراءَ دان بريرها
وأشرف بالغور اليفاع لعلني ... أرى نار ليلى أو يراني بصيرها
وكنت إذا ما جئت ليلى تبرقعت ... فقد رابني منها الغداة سفورها

عليّ دماء البدن إن كان قومها يروا لي ذنباً غير أني أزورها

ثم ارتد راجعاً إلى أهله وذويه وبات ليلته في كدر وما زال على تلك الحالة حتى ضعف جسمه ووهل عقله واعتل وكان لا يلتذ بطعام ولا منام. وكان يخرج من الخيام ليستنشق الأخبار لعله يرى رسول ليلى وقد مضت عليه الأيام ولم يسمع عنها خبراً أو يأتيه رسول منها فأنشد قائلاً :

لعمرك ان الليل يا أم مالك علي وإن عللتني لطويل
أحاذر أخبار أمن القوم قد دنت ورجعة أنقاض لهن دليل

قال فبينما هو كذلك إذ أقبل عليه صديق له يدعى قيس بن ذريح ابن سنّة وفي رواية الحباب يتصل نسبه ببكر بن عبد مناة عذرى وهو من خزاعة وكان هذا عاشقاً للبنى بنت الحباب الكعبية وكان يشتهي لقاء قيس المولع بحب ليلى العامرية لما سمع من أخباره وأشعاره. فلما رآه وعرفه سلم عليه فلم يرد عليه فعرّفه بنفسه فقام إليه واحتضنه وتباكيا ساعة من الزمن على ما حلّ بهما واشتكى كل منهما إلى الآخر ما عنده. فقال قيس المجنون لقيس بن ذريح يا قيس إن حي ليلى قريب وقد منعت من الوصول إليه فهل لك أن تبلغها سلامي فأنشد قائلاً :

سلام عليكم ما الذي ساع هجرنا وحسّنه حتى غدا ودنا العنقا
نسائل عن أخباركم كل قادم ونحفظ عهداً بالمودة قد رقا
ونستنشد الأرياح عند لقائها إذا حدثتنا عن محامدك الورقا
فبالله يا بدر المعالي دع القلى وقل هاك يا خلي على الهجر لا تبقى
وهاك فؤادي في يد الخل صادر إليك فقابل بالقبول ولا تشقى

قال فمضى بن ذريح حتى وقف بها ونسب نفسه فتعارفا وبلغها

فأخبرته ان وجدها به أعظم ولكن قالت أنا عاتبة عليه حيث يقول :

أتت ليلة بالغيل يا أم مالك   لكم خير حب صادق ليس يكذب
ألا إنما أبقيت يا أم مالك   صدى أينما تذهب به الريح يذهب

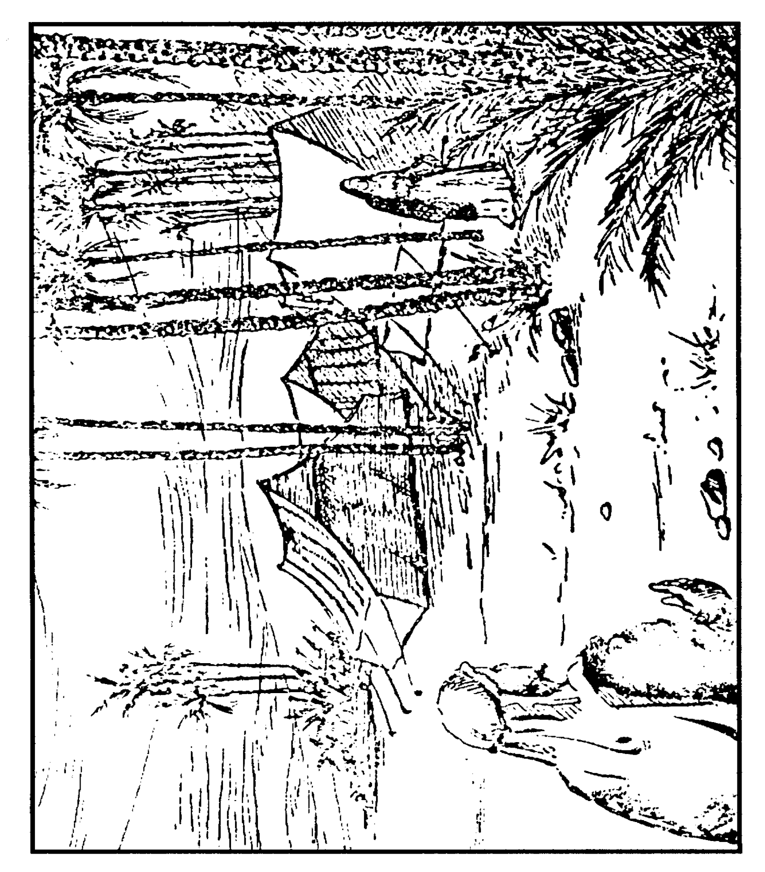
فأي ليلة كانت ومتى اختليت معه بالغيل أو غيره ليلاً أو نهارا قال لها قيس بن ذريح يا ابنة عم ان الناس تأولوا كلامه على غير ما أراد فلا تكوني مثلهم إنما أخبر أنه رآك ليلة الغيل فذهبت بقلبه لا انه عناك بسوء.قال ثم أطرقت طويلاً ودموعها تجري على خديها وهي تكففها ثم انتحبت حتى قلت تقطعت حيازيمها.ثم قالت لي يا قيس أقرأ على ابن عمي السلام وقل له بنفسي أنت والله ان وجدي بك لفوق ما تجد ولكن لا حيلة لي فيك ثم أنشدت وقالت :

دعوا مقلتي تبكي لفقد حبيبها   ليطفئ برد الدمع حر كروبها
ففي حبل خيط الدمع للقلب راحة   فطوبى لنفس متّعت بحبيبها
بمن لو رأته القاطعات أكفها   لما رضيت لا بقطع قلوبها

ثم انصرف قيس راجعاً إليه ليخبره فلم يجده.

قال الراوي : ثم إن قيساً بعدما ذهب عنه بن ذريح خرج هائماً على وجهه قاصداً بيوت حي ليلى فبينما هو كذلك إذ رأى ليلى وهي تمشي في ظاهر البيوت وكان ذلك بعد فقد طويل.فلما رآها بكى حتى سقط مغشياً عليه فمكث كذلك مليا ثم أفاق وانصرف خوفاً من أهلها أن يلقوها معه فأنشد قائلاً :

بكى فرحاً بليلى إذ رآها   محب لا يرى حسنا سواها
لقد ظفرت يداه ونال ملكا   لئن كانت تراه كما يراها



قيس ينظر ليلى وهى تمشى فى ظاهر البيوت

قال الراوي ولما اشتهر أمرهم في العرب وشاع شعر قيس في ليلى وقد منعه أهلها من زيارتها كان في حي ليلى امرأة من بني عامر قد تزوجها رجل من حريش ومات عنها وقد ترك لها صبية صغارا فكان قيس يأتيها ليتعرف منها أخبار ليلى فبلغ أهلها ذلك فزجروا المرأة وجاء قيس فأخبرته بذلك فأنشد قائلاً :

أجارتنا إنا غريبان ههنا وكل غريب للغريب نسيب
فلا تزجريني عنك خيفة كاشح إذا قال شراً أو أُخيف لبيبُ

ثم تركها ولم يرجع إليها وكان يأتي غفلات الحي. فلما علم والد ليلى بذلك أرسل إلى والد قيس وعشيرته رسولاً يخبرهم وينذرهم إن لم يمنعوا قيساً من الوصول إليهم فلا يلومن إلا نفسه. قال فلما سمع والد قيس ذلك الخبر تكدر من والد ليلى ودخل على قيس وأخبره بذلك وقال له يا قيس إن القوم يريدون قتلك إن رجعت إليهم أو دخلت دورهم وإني أخاف عليك يا بني من أن يغدر بك عمك فلا تفجعني فيك فلا كانت ليلى ولا كان والدها ولا كان اليوم الذي كنتما فيه قال فغضب قيس من ذلك وتكدر فأنشد قائلاً :

لئن حجبت ليلى وآل أميرها علي يمينا جاهدا لا أزورها
وأوعدني فيها رجال أبوهم أبي وأبوها خشنت لي صدورها
على غير شيء غير أني أحبها وأن فؤادي عند ليلى سميرها

ولما يئس قيس من ذلك قلق قلقاً شديداً أدّى لزوال عقله فهام على وجهه وأصبح يلعب بالتراب والعظام لا يعقل شيئاً غير ذكر ليلى.

قال حدثني الكسروي عن جماعة من الرواة قال لما منع والد ليلى قيس وعشيرته من الوصول إليهم أقسم قيس أنه لا يزال يغشى بيوتهم

ويهجم عليهم وقد سبق أن شكوه إلى ابن مروان فأهدر لهم دمه وقد علم بذلك فلم يرعه الأمر وقال الموت أروح لي فليتهم قتلوني. فلما علموا بذلك وعرفوا أنه لا يزال يطلب غرة منهم حتى إذا تفرقوا دخل دورهم وخوفا من الفضيحة ومن قيل وقال ارتحلوا من تلك الأرض وأبعدوا عنها ثم جاء قيس عشية ذلك اليوم يطلب ليلى فلما أشرف على دورهم فإذا هي بلاقع فقصد منزل ليلى الذي كان بيتها فيه فألصق صدره به وجعل يمرغ خديه على ترابه ثم أنشد قائلاً :

أيا حرجات الحي حين تحمّلوا ... بذي سلم لأجادكنّ ربيع
وخيماتك اللاتي بمنعرج اللوى ... بلين بلاً لم تبلهنّ ربوع
ندمت على ما كان مني ندامة ... كما يندم المغبون حين يبيع
فقدتك من نفس شعاع فإنّني ... نهيتك عن هذا وأنت جميع
ألا يا غزال الرمل من بطن وجرة ... أللواجد الظمآن منك شروع
خلا لك في الأحشاء مرعى ترودهُ ... وصابك من ماء الدّموع ربيع
ألا هل إلى ظل الأثيل تخلّص ... وهل لثنيّات الغوير طلوع
وهل بنيت خيم على أيمن الحمى ... وزالت لنا بالأبرقين ربوع
وهل لليالينا الطوال تصرّم ... وهل لليالينا القصار رجوع
ولم أنس يوم الجزع حسنا خلسته ... بعيني على أن الزيّال سريع
ولما توافقنا ذهلت ولم يحن ... لطير قلوب العاشقين وقوع
على حين أعدت حيرتي قلب صاحبي ... فرحنا وصوت العامريّ مضيع
حديث يضل القلب عند استماعه ... فليس عجيباً أن يضلّ قطيع
عشية لي من رقبة الحيّ زاجر ... عن الدمع إلا أن تشذّ دموع
وقد أمرت عيناك عيني بالبكى ... فقل لأيّ الآمرين أطيع

قال وكان لقيس أبناء عم كانا يأتيانه فيتحدثان معه ويسليانه ويؤانسانه

وقد مضت لهم مدة من الزمن لم يراهم قيس فتذكرهم وذهب إليهم فوقف عليهم وهم جلوس فلما رأوه قالوا له مرحباً بك يا أبا المهدي ألا تجلس قال لا. إني أريد أن أمضي إلى منازل ليلى وأترسم دارها وأرى آثارها فيه فأشفي بعض ما في صدري بها فقالا له نحن نأتي معك فقال لهم إذا فعلتا ذلك أكرمتا وأحسنتا فقاما معه حتى إذا أتى دار ليلى فوقف بها طويلاً ويتتبع آثارها ويقف في موضع منها ويبكي ثم أنشد قائلاً :

قف بالديار عفا من أهلها الأثر ... عفّى معالمها الأرواح والمطـر
منازل الحي أقوت بعد ساكنها ... أمست ترود بها الغزلان والبقر
تبدلـوا بعدهــا داراً وغيرهــا ... صرف الزمان وفي تكراره غير
وقفت فيها طويلاً كي أسائلها ... والدار ليس لها علم ولا خبر
دار التـي قادني حَيْـــنٌ[1] لرؤيتها ... وقد يقود إلى حَيْنِ الفتى القدر
خود تضيء ظلام البيت صورتها ... كما يضيء ظلام الحندس القمر
مجدولة الخلق لم توضع مناكبها ... ملء العناق ألوف جيبها عطر
ممكورة الساق مقصوم خلاخلها ... فمشبـع نشب منها ومنـكسر
هيفاء لفّاء مصقول عوارضها ... تكاد من ثقل الأرداف تنبتر
كالمسك شيب بذوب النحل يخلطه ... ثلج بصهباء مما عتّقت جدر
تلك التي سلبتني العقل وامتنعت ... والغانيات وإن واصلننا غــدر
قد كنت في معزل عنها فقبضني ... للحين حين دعاني للشقاء النظر
لا أصرف الدهر ودّي عنك أمنحه ... أخرى أواصلها ما أورق الشجـر
أنت المنى وحديث النفس خالية ... وفي الجميع وأنت السمع والبصر
يا ليت من لامنا في الحب مر به ... مما نلاقي وإن لم نحصه العشر

(١) الحين : بفتح الحاء : الهلاك



قيس يعود إلى منازل ليلى مرة ثانية ليتذكر ليلى

حتى يذوق كما ذقنا فيمنعه مما يلذ حديث النفس والسهر

ثم رجع عائداً مع أبناء عمه وقالوا له هيا بنا نتنزه حول هذه الوديان وركب كل منهم راحلته فأفضت بهم الطريق إلى مسلكين أحدهما يمر برهط ليلى ولكنه يزيد مرحلة. فتقدم قيس إلى أبناء عمه وسألهم أن يسلكوها أو يمكثوا له حتى يرجع فأبوا عليه فقال أنشدكم الله لو أن شخصاً تحرّم بكم فضل بعيره أكنتم تسعفونه قالوا نعم. فقال قيس ان ليلى لأعظم من ذلك وأنشد قائلاً :

أأترك ليلى ليس بيني وبينها سوى ليلة إني إذا لصبور
هبوني أمراً منكم أظلّ بعيره له ذمة إن الذمام كبير
وَللْصاحبُ البرور أعظم حرمة على صاحب من أن يضل بعير
عفا الله عن ليلى الغداة فإنها إذا وليت حكماً عليَّ تجور

قال وذكر عمرو الشيباني أن قيساً كان ذات ليلة جالساً مع أصحابه وبنو عمه وكان وَلَهٌ يتأظى ويتململ وهم يعظونه ويحادثونه ويخفّفون عليه آلامه إذ هتفت حمامة من سرحة كانت بإزائهم فوثب قيس قائماً وأنشد قائلاً :

لقد غردت في جنح ليل حمامة على إلفها تبكي وإني لنائم
كذبت ادعاء الحب لو كنت عاشقاً لما سبقتني بالبكاء الحمائم

ثم بكى حتى سقط مغشياً عليه فما أفاق حتى حميت عليه الشمس ثم قام وهام على وجهه في القفار قال فبينا هو كذلك إذ مر عليه رجل من أصحاب حيه فرآه يرمل بيبرين يخطط فيه فوقف عليه متعجباً منه وكان هذا الرجل يسمع عنه ولا يعرفه فقال له ما بك أخا العرب فرفع قيس رأسه إليه وأنشد قائلاً :

بي اليأس والداء الهيام أصابني فإياك عني لا يكن بك ما بيا
كأن جفون العين تمشي دموعها غداة رأت أظعان ليلى غواديا
غروب أمّرتها نواضح بزل على عجل عجم يروين صاديا
ألا أيها الركب اليمانون عرجوا علينا فقد أمسى هوانا يمانيا
نسائلكم هل سال نعمان بعدنا وحب إلينا بطن نعمان واديا
ألا يا خليلي حب ليلى مجشمي حياض المنايا أو مقيد الأعاديا
ويا أيها القمريتان تجاوبا بلحنيكما ثم اسجعا علّانيا
فان أنتما استطربتما وأردتما لحاقا بأطراف الغضا فأتبعانيا

قال جماعة من قشير أن قيساً لما حجبت عنه ليلى وامتنع من رؤيتها ثم رحل بها والدها وقومها من تلك الديار التي يسكنها قيس وقومه ومضى عليه وقت طويل لم يرها فيه ولم يسمع عنها خبر مرض مرضاً شديداً حتى أشرف على الهلاك فدخل عليه أبوه يعلله فوجده ينشد قائلاً :

ألا أيها القلب الذي لج هائماً بليلى وليداً لم تقطع تمائمه
أفق قد أفاق العاشقون وقد أنى لحالك أن تلقى طبيبا تلائمه
فما لك مسلوب العزاء كأنما ترى نأى ليلى مغرما أنت غارمه
أجدك لا تنسيك ليلى ملمة تلم ولا تنسيك عهداً تقادمه

فما هان حاله على أبيه وكان قيساً له عند أبيه أعظم منزلة من أخوته وكان أبوه ذا ثروة كبيرة فقام وشد رحله وأخذ جماعة من حيّه يصحبهم قيس وتوجها قاصدين ديار ليلى فلما وصلوا نزلوا ضيوفا على أبيها وأقاما بياض نهارهما. وفي المساء اجتمعا وتحادثا في أمر قيس وليلى فقام والد قيس ودفع لوالد ليلى خمسين بعيراً حمراء وراعيها وذلك مهراً في ليلى فلم يقبل أبوها وكان دون أخيه في الثراء وكان عدم قبوله

ذلك هو أنه لِما مرّ من أنّ العرب كانت تكره تزويج اثنين انتشرت أخبارهما بالمحبة والشعر. وبينما هم جلوس يتفاوضون في ذلك الأمر إذ دخل عليهم رجل من ثقيف مع جماعة من أصحابه يقال له ورد وكان جميل الطلعة موسراً فخطبها من أبيها وبذل لها عشراً من الإبل وراعيها وكان والد ليلى وصحبه جلوساً فقام والد ليلى قائلاً نحن مخيروها بينكما فمن اختارت تزوجته. ودخل والد ليلى إليها وقال لها لئن لم تختاري ورداً لأمثلن بك فاختارت ورداً وهي كارهة مرغمة ومجبرة من أهلها وذويها فخرج والد ليلى إلى القوم وقال إن ليلى قد اختارت ورداً فوعد والد ليلى ورداً بذلك واستمهله مدة وجيزة. قال فلما سمع القوم ذلك قام والد قيس مغضباً من أخيه وخرج مع صحبه وخرج قيس من بينهم هائماً على وجهه منشداً شعره في ليلى :

ألا يا ليلى إن ملكتِ فينا خيارك فانظري لمن الخيار
ولا تستبدلي مني دنيّا ولا برما إذا حث الفتار
يهرول في الصغير إذا رآه وتعجزه ملمات كبار
فمثل تأيم منه نكاح ومثل تمول منه افتقار

قال ذكر الهيثم بن عدي عن عثمان بن عمارة بن خزيم العمري قال خرجت إلى أرض بني عامر لألقى قيس المجنون بحب ليلى فدللت عليه وعلى محلته فلقيت أباه شيخاً كبيراً وحوله إخوة لقيس جلوساً مع أبيهم ومعهم بعض من القوم فسألتهم عن قيس فبكوه وقال الشيخ أما والله لهو كان آثر عندي من هؤلاء جميعاً وأنه عشق امرأة من قومه وما كانت تطمع في مثله فلما فشا أمره وأمرها بين العرب كره أبوها أن يزوجها به بعد ما ظهر من أمرهما. فأصبح فاقد العقل هائماً على وجهه في القفار لا يهدأ له حال يلعب بالتراب ويجمع العظام حوله فإذا ذكرت

له ليلى عاد إليه رشده وأنشأ يحدث عنها عاقلاً لا يخطىء حرفاً وكنّا نحبسه ونقيده فيعض لسانه وشفتيه حتى خشينا عليه فخلينا سبيله فهو الآن يهيم على وجهه غير مستوحش إنما يكون في جنبات الحي منفرداً عارياً لا يلبس ثوباً إلا خرقة ويهذي ويخطط في الأرض ويلعب بالتراب والحجارة ولا يجيب أحداً سأله عن شيء فإذا أحبوه أن يتكلم أو يثوب إليه عقله ذكروا له ليلى فيقول بأبي وأمي. ثم يرجع إليه عقله فيخاطبوه ويجيبهم ويأتيه أحداث أهل الحي فيحدثونه عنها وينشدونه الشعر الغزل فيجيبهم جواباً صحيحاً وينشدهم أشعاراً قالها في ليلى وهذا حاله.

قال الراوي ثم إن نوفل بن مساحق نزل مجمعاً من تلك المجامع فرآه يلعب بالتراب وهو عريان فقال لغلام له: يا غلام هات ثوباً فأتاه به فقال لبعضهم خذ هذا الثوب فألقه على ذلك الرجل فقال له أتعرفه جعلت فداك قال لا. قال هذا ابن سيد الحي لا والله ما يلبس الثياب ولا يزيد على ما تراه يفعله الآن وإذا طرح عليه شيء مزّقه. ولو كان يلبس ثوباً لكان في مال أبيه ما يكفيه وحدّثه عن أمره.

فدعا به وكلمه فجعل لا يعقل شيئاً يكلمه به فقال له قومه إن أردت أن يجيبك فاذكر له ليلى فذكرها له وسأله عن حبه إياها فأقبل يحدثه بحديثها ويشكو له حبه إياها وما فعله والدها معه ومع أبيه من تزويجها إياه وقام ينشد شعره :

إذا ذكرت ليلى عقلت وراجعت	روائع عقلي من هوى متشعب
وقالوا صحيح ما به طيف جنة	ولا الهم إلا بافتراء التكـــذب
وشاهد وجدي دمع عيني وحبها	برى اللحم عن أحناء عظمي ومنكبي
تجنبت ليلى أن يلج بك الهوى	وهيهات كان الحب قبل التجنب

فأصبحت من ليلى الغداة كناظر ... مع الصبح في أعقاب نجم مغرب
إذا طلعت شمس النهار ذكرتها ... وأحدث ذكراها إذا الشمس تغرب
وأن لها دون النساء لصحبتي ... وحيطتي الأشعار حين أشبب
وأن الذي يبغي رضاي بذكرها ... الى وإعجـابي بها يتحـبب
إذا خلجت عيني أقول لعلها ... لرؤيتها تهتاج عيني وتضرب
إذا خدرت رجلي أبوح بذكرها ... ليذهب عن رجلي الخدور فيذهب
ألا إنما غادرت يا أم مالك ... صدى أينما تذهب به الريح يذهب

فقال له نوفل يا قيس الحب صيرك إلى ما أرى قال نعم وسينتهي بي إلى ما هو أشد مما ترى.فعجب منه نوفل وقال له أتحب أن أخطبها لك من أبيها قال نعم فقال له قيس وهل من ذلك إلى سبيل قال نوفل ولا بد فقال له قيس لقد سبقك أبي وصحبه إلى أبيها فرفض ولم يقبل فقال له نوفل انطلق معي حتى أقدم على القوم وأخطبها عليك وأرغبهم في المهر.فقال قيس أتراك فاعلاً قال نعم قال انظر ما تقول قال لك علي أن أفعل ذلك فدعا له بثياب فألبسه إياها وراح معه قيس كأصح أصحابه يحدثونه فبلغ ذلك رهطها فتلقوه بالسلاح.وقال والد ليلى يا ابن مساحق لا يدخل المجنون منازلنا أبداً أو يموت وقد أهدر دمه فأقبل بهم وأدبر فأبوا فلما رأى نوفل منهم ذلك قال لقيس انصرف أنت فقال له قيس والله ما وفيت لي بالعهد فقال له نوفل إن انصرافك أصلح من سفك الدماء ودعني اتصرف معهم ثم انصرف قيس هائماً على وجهه ومزق ثيابه وأنشد قائلاً :

أباكـــزة في الظاعـــنين رميم ... ولم يشف مبتول الفؤاد سقيم
أم أتعد الحي الرواح فإنني ... لكل الذي ينوي الأمير وجوم
فراحوا وراحت واستمرت كأنها ... غمامة دجن تنجلي وتـغيم

إلى الله أشكو فقد ليلى كما شكا ... إلى الله بعد الوالدين يتيم
يتيم جفاه الأقربون فجسمه ... نحيل وعهد الوالدين قديم
مبتلة بيضاء مهضومة الحشا ... غذاها سرور دائم ونعيم
قد اعتدلت النصف من غصن بانة ... ونصف كثيب لبّدته سجوم
منعمة أهدى لها الجيد شادن ... وأهدت لها العين العقول بغوم
تراخت بها دار وأصبحت العدا ... لديها كما شاؤا ومل بروم
وهي التي قالت لجارات بيتها ... ضمنت لكم أن لا يزال يهيم
ضمنت لكم أن لا يزال كأنه ... لطيف خيال من رميم غريم
وقالت لأتراب لها تشبه الدمى ... تنكبن شيئاً والدموع سجوم
وقالت لهنّ اربعن شيئاً لعلّني ... وإن لامني فيما ارتأيت مليم
فقالت ترى مستنكرا أن تزورنا ... وتشريف ممشانا إليك عظيم
وأنت علينا إن نأيت وان دنت ... بك الدار فاعلم يا ابن عم كريم
فقلت لها ودّي وتكرمتي لكم ... على كل ما أصفيك منك طعوم
ولم أنس ما قالت وإن شطّت النوى ... بها وأمير ما يزال شتوم
عشية رحنا ملغميم وصحبتي ... تخب بهم عيس لهن رسيم
فقلت لأصحابي انفذوا إن موعداً ... لكم مرّ وليربع عليّ حكيم

قال فلما سمع نوفل ورأى ما حلّ بقيس وما قاله من الشعر صعب عليه حاله واستعظم الأمر ولم يهن عليه ذلك. فجمع قومه وذهب إلى أبي قيس وأمه ورجال عشيرته ودخل عليهم وقال لهم هيا بنا إلى والد ليلى لعلنا نجد إلى ذلك من سبيل فاجتمعوا وذهبوا جميعاً إلى أبي ليلى فوعظوه وناشدوه الله والرحم وقالوا له إن هذا الرجل لهالك وقبل ذلك ففي أقبح من الهلاك ذهاب عقله وأنك فاجع به أباه وأهله فنشدناك الله والرحم أن تفعل ذلك وأن تقبله زوجاً لابنتك فوالله ما هي أشرف

منه ولا لك مثل مال أبيها وقد حكمك في المهر وإن شئت أن يخلع نفسه إليك من ماله فعل. فأبى والد ليلى وحلف بالله وبطلاق أمها أنه لا يزوجه إياها أبداً وقال أفضح نفسي وعشيرتي وآتي ما لم يأته أحد من العرب واسم ابنتي بميسم فضيحة فان هذا لا يكون ولا يقبله أحد فانصرفوا عنه مغضبين. فقام والد ليلى وخالفهم لوقته وطلب ورداً فزوجه إياها وأدخله عليها فما أمسى إلا وقد بنى بها ورداً. وقد شاع الخبر وبلغ قيس ذلك فآيس منها وزال عقله جملة وتأكد لديه تزويجها من ورد فهام على وجهه وأنشد قائلاً :

دعوت آلهي دعوة ما جهلتها وربي بما تخفي الصدور خبير
لئن كان يهدي برد أنيابها العلا لأفقر مني أنني لفقير
فقد شاعت الأخبار أن قد تزوجت ورداً فهل يأتني بالطلاق بشير

قال ولما جن عليه الظلام ارتد راجعاً إلى الخيام وبات في قلق شديد وهم ما عليه من مزيد. ولما أصبح الصباح رجع إلى ما كان عليه من البكاء والنواح وقد زاد به الحال وتغلبت عليه الهموم والأحزان وكان كثيراً ما يجول في الفلوات ويندب ندب الثاكلات ويتوغل في الفلا حتى صار في حالة الذل والهوان. قال وكان أبو قيس لا يطيب له عيش ولا يرتاح له بال خوفاً على ولده من الهلاك والوبال لأنه كان عالماً بالحال الذي هو فيه والشقاء الذي كان يؤلمه ويؤذيه. فخرج في طلبه مع جماعة من القوم وما زالوا يقطعون السهول والآكام مدة ثلاثة أيام وفي اليوم الرابع التقوا به وهو جالس على الرمال مطرقاً إلى الأرض عابساً وثيابه ممزقة. فلما رأى والده ذلك بكى وترامى عليه وقبله بين عينيه وقال له يا بني إلى متى وأنت في هذا الحال تقاسي الشدائد والأهوال والمشقات والأذلال بعد ذلك العز والدلال فأين عقلك وحلمك وأدبك

وفهمك فقد كفاك ما دهاك فقم بنا الآن نرجع إلى الأوطان فإن الذي أنت فيه هو من عمل الشيطان فأزجره عنك واتق الرحمن. فقال له قيس إني لك سامع إلا في هذ الشأن فإنه خارج عن حد الإمكان فما زالوا يلاطفونه بالكلام حتى رضي وقام وأراد أن يمشي معهم فلم يتمكن أن يخطوا ولا بعض خطوات حيث قد اعتراه الهزال فشق عليهم ذلك. فقام أخوته وحملوه فلما وصلوا به إلى الديار قال بعض أصدقائه وخلانه لأبيه لو كنت تعرضه على طبيب يطببه ربما انتفع بذلك وتعود إليه صحته. قال فامتثل والده وخرج وسار في تلك الوديان والقرى يطلب له طبيباً فوجده وأتى به لقيس. فلما دخل الطبيب عليه رقاه ثم فعل له دواء وكان يسقيه من ذلك الدواء مرة بعد أخرى فلم يُجْدِ نفعاً فقال له قيس أيها الطبيب لا تتعب نفسك فإنه ليس بي مرض إلاَّ حبّ ليلى فإنها هي دائي ودوائي. وعند ذلك تذكر قيس موقفه في دار عمه وكيف أهانه وأهان والده وصحبهم الذين كانوا معهم بين القوم ورفض تزويجه من ليلى وزوجها ورداً فأنشد قائلاً :

تحملت من ليلى ما ليس لي بها ... ولا الجبال الراسيات يدان
كأنّ قطاة علقت بجناحها ... على كبدي من شدة الخفقان
عَلَى كبدي من حب ليلى قرحة ... وعينان من وجدي بها تكفان
وأحببت بنت العم حباً وإن نأت ... ودانيت فيها غير ما متداني
إذا رام قلبي هجرها حال دونه ... شفيعان من قلبي لها جذلان
إذا قلت لا قالا بلى ثم أصبحا ... جميعاً على الرأي الذي يريان
فيا رب أنت المستعان على الذي ... تحملت من ليلى منذ زمان
فيا ليت كل اثنين بينهما هوى ... من الناس والانعام يلتقيان
فيقضي حبيب من حبيب لبانة ... ويرعاهما ربي فلا يريان



قيس يعاني من المرض والطبيب يسقيه الدواء ..

جعلت لعراف اليمامة حكمه وعراف نجد إن هما شفياني
فقالا نعم نشفي من الداء كله وقاما مع العواد يبتدران
نعم وبلى قالا متى كنت هكذا ليستخبراني قلت منذ زمان
فما تركا من رقية يعلمانها ولا سلوة إلّا وقد سقياني
وما شفيا الداء الذي بي كله ولا أدخرا نصحا ولا ألوان
فقالا شفاك الله والله مالنا بما حملت منك الضلوع بدان
فلو بعينك يا طبيب نظرتنا ليلة السفح قرت العينان
هي دائي وهي الدواء لدائي لو أداوى بريقها لشفاني
لم تدع للنساء عندي نصيباً غير ما قلت مازحاً بلسان
وقلا قلبي النساء سواها بعدما كان مغرما بالغوان
فيا عم يا ذا الغدر لا زلت مبتلي حليفاً لهمّ لازم وهوان
غدرت وكان الغدر منك سجية فألزمت قلبي دائم الخفقان
وأورثتني غما وكربا وحسرة وأورثت عيني دائم الهملان
فلا زلت ذا شوق إلى من هويته وقلبك مقسوماً بكل مكان
فيا عم لا أسقيت من ذي قرابة بلالا فقد زلت بك القدمان
بنية عمي حيل بيني وبينها وصاح لوشك الفرقة الصردان
فويلي على ليلى طويل كأنه على الكبد والأحشاء حد سنان
وقد تركت ليلى قليبي كأنه جناح غراب دائم الخفقان

قال ثم أغشى عليه وقام القوم ورشوا عليه الماء حتى أفاق ثم قام أبوه واحتضنه وقال يا بني اذكر الله في نفسك قبل حلول رمسك فقال صدقت فأقام قيس مع والده مدة في الحي ولكنه في قلق شديد على بعده من ليلى. قال الراوي هذا ما كان من أمر قيس. وأما ما كان من امر ليلى فإنه لما بلغها خبر قيس وما هو فيه أخذها عليه

القلق والضجر واصفر لونها وتغير وجهها وواظبت على البكاء والسهر كل ذلك خوفاً على قيس ابن عمها فأرسلت له جارية لها كانت تعتمد عليها في كتم أسرارها وقالت لها قولي لقيس إن ابنة عمك ليلى الحزينة لفراقك قد بلغها ما أنت فيه من الوجد والهيام وهجران الطعام وأنه قد اعتراك الهزال وصرت ناحلاً كالخيال وحيث أن لا أرضى أن تكون هذه الحالة بك فاحضر في نصف الليل إلى وادي الأراك وأنا أوافيك إلى هناك وإني مخاطرة في هواك. قال فخرجت الجارية تتسلل في الظلام بحيث لا يراها أحد من القوم حتى وصلت إلى دار قيس فطرقت عليه الباب ودخلت وأخبرته بما قالت ليلى فامتنع من ذلك وقال للجارية إني أخشى عليها من المهالك قال فرجعت الجارية إلى ليلى وأخبرتها بما قاله قيس خوفاً عليها. فأرسلتها إليه مرة ثانية وقالت له إن لم تأتي إلى ذلك الموضع فسأقتل نفسي في هواك. فلما بلغه ذلك أجاب إلى طلبها وعلم صدق حبها له وانشرح صدره وأنشد قائلاً :

لقد أرسلت ليلى إلينا أن ائتنا ... فأحبب بها من مرسل متغضب
فأرسلت أن لا أستطيع فأرسلت ... تؤكد إيمان الحبيب المؤنب
وموعدك البطحاء من وادي اراكة ... أو الشعب بالممروخ من بطن مغرب

قال فلما مضى ثلث من الليل قام وخرج قاصداً ذلك المكان وفي قلبه لهيب من النيران فجلس وهو يتأمل في الربى والآكام إلى أن انتصف الليل وعلا نجم سهيل وقد زاد به القلق والأرق وارتعش فؤاده وخفق وإذا بليلى قد أقبلت فتقدمت إليه وسلمت عليه وقبلته في عارضيه وأخذهما الهيام وكان كلا منهما يشتكي لصاحبه ما هو فيه من الحب والغرام ثم غلب على جواها وعشقها لقيس وحبها له ورأت قيساً وما هو فيه من غرامه بها وحبه إياها تأوهت وقالت :

أتخالني من زلة أتعتّب قلبي عليك أرق مما تحسب
قلبي وروحي في يديك كأنما أنت الحياة فأين عنك المذهب

قال فبينما هما يتشاكيان ألم الحب ولوعة الغرام وقد هاجت بهما الأشواق فمالا على بعضهما ما بين ضم وعناق وكان الوقت عندهما أجمل مما تحمله الأرض من كنوز وغيرها فقالت له ليلى بتيه ودلال أتاركي أنت يا قيس. قال لها لا والله ولكني أخاف عليك من ضير يأتيك أما أنا فلا أخشى تهديد أبيك أو غيره أمام لقياك أو ابتسامة رضاك ثم رمته بتأوهاتها وقالت له خذني معك إلى الصحراء أو إلى أي أرض فقال أخاف الافتضاح أو إفساد الحب أو أن يتكلم الواشون فينا مما لا تمسحه كر السنين وسير القرون. وكان قيس يكلمها كالسكران تارة وكالمعتوه أخرى ثم أخذ القمر ينحدر إلى الأفق رويداً رويداً وكان وجه ليلى يزداد جمالاً مما جعل قلب قيس يطير شعاعاً فكان يقبلها وتقبله وهما لا يدريان. حتى إذا بدا نور الصباح قامت ليلى حزينة ودموع عينيها تجري على فراق قيس فودعته وعادت إلى الخيام فدخلت دارها وكان بعض من القوم يراقبها. هذا ما كان من أمر ليلى. وأما ما كانَ من أمر قيس فإنه مكث جالساً في موضعه إلى أن طلعت الشمس من بين الجبال وظهر نورها على تلك الآكام وهو يشتم رائحة المسك والعنبر في ثيابه من أثر ليلى حتى جعله تائهاً في بحر أفكاره وغرامه لا يدري هل كَان اجتماعه بليلى يقظة أم منام حتى ارتفع قرص الشمس فذرفت عيناه بالدموع وأشجاه منظر ذلك الوادي البديع. وكانت الطير تشجو بتغريد الصبح فأخذته غمرة شديدة. وكانت تخنقه العبرات فتارة قائماً وطوراً قاعداً ثم أخذ برأسه مستنداً إلى جذع شجرة يتأمل ويفكر في أمر ليلى وخوفه عليها من أبيها. وبينما هو كذلك إذ حميت عليه الشمس

في ذلك الوادي فقام مرتحلاً إلى دياره ثم تذكر ليلى عندما أرسلت رسولها فأنشد قائلاً :

آذنت ليلى ببين مبتكر وحذرت البين منها فاستمرّ
أرسلت ليلى إلينا ناصحا بيننا إيت حبيب قد حضر
ما زال طرفي يحار إذ برزت حتى التقينا ليلا على قدر
فاعلمن أن محبًّا زائر حين تخفى العين عنه والبصر
قلت أهلاً بكم من زائر أورث القلب عناء وذكر
فتأهّبت لها في خفية حين مال اللّيل واجتنّ القمر
بينما أنظرها في مجلس إذ رماني الليل منها بسكر
لم يرعني بعد أخذي هجعة غير ريح المسك منها والقطر
قلت من هذا فقالت هكذا أنا من جشمته طول السهر
ما أنا والحب قد أبلغني كان هذا بقضاء وقدر
ليت اني لم أكن علّقتكم كل يوم أنا منكم في عبر
سخنت عيني لئن عدت لها تمدّنّ بحبل منبتر
عمرك الله أما ترحمني أم كان قلبك أقسى من حجر
قلت لمّا فرغت من قولها ودموعي كالجمان المنحدر
أنت يا قرّة عيني فاعلمي عند نفسي عدل سمعي والبصر
فاتركي عنك ملامي واعذري واتركي قول أخي الأفك الأشر
فأذاقتني لذيذاً خلته ذوب نحل شيب بالماء الخصر
ومدام عتّقت في بابل مثل عين الديك أو خمر جدر
فتقضّت ليلتي في نعمة مرّة ألثمها غير حصر
وأفرّي مرطها عن مخطف ضامر الأحشاء فعم المؤتزر
فلهونا ليلنا حتى إذا طرّب الديك وهاج المدكر

حرّكتني ثم قالت جزعاً ودموع العين منها تبتدر
قم صفّي النفس لا تفضحني قد بدا الصبح واذا برد السحر
فتولّت في ثلاث خرّد كدمى الرّهبان أو عين البقر
لست أنسى قولها ما هدهدت ذات طوق فوق غصن من عشر

أما ما كان من أمر ليلى فإنها وصلت إلى دارها ودخلت إلى مخدعها ولم يشعر بها أحد. غير أن أحد الوشاة كان يراقبها. فلما أصبح ذهب إلى والدها وأخبره أنه رآها ليلاً بوادي الأراك وهي مع قيس. فعندما سمع ذلك دخل عليها وهددها بالقتل إن عادت لمثل ذلك وجعل عليها الرقباء فلم تتمكن من الذهاب في الليلة الثانية. ولكن خوفا على قيس أرسلت له جاريتها عندما انتصف الليل فذهبت الجارية فوجدت قيساً جالساً لليلى بالانتظار. قال ولما قدمت الجارية ظن قيس أنها ليلى فلما تبين له أنها جاريتها صاح فيها وقال لها أين ليلى فقالت له إن بعض الوشاة من القوم راها معك البارحة فوشى بها عند أبيها وأن أباها هددها بالقتل إن عادت وأقام عليها الرقباء. وقد أرسلتني إليك خوفاً عليك من الانتظار وعادت الجارية مسرعة من حيث أتت فحار قيس في أمره وقد جن جنونه وأنشد قائلاً :

وممّا شجاني أنها يوم أعرضت تولّت وماء الجفن في العين حائر
فلما أعادت من بعيد بنظرة إليّ التفاتاً أسلمته المحاجر
يقولون لا تنظر وتلك بلية بلى كل ذي عينين لا بد ناظر
الآم إذا حنّت قلوص من الهوى ولا ذنب لي في أن تحنّ الأباعر

قال ولم يزل قيس جالساً في ذلك الوادي حتى أصبح الصباح وهو لا يدري أين هو، ولما اشتد عليه الهجير ألقى بنفسه على رابية من الرمال

إلى الأرض وغاب عن رشده طيلة ذلك اليوم.وكان بعض من الرعاة من قومه يرعون بغنمهم في ذلك الوادي فرأوه وهو ملقى على الأرض فحمله رجلان منهم وذهبوا به إلى داره وأناموه على الفراش. فمكث ثلاثة أيام لا يتكلم ولا يأكل ولا يشرب حتى اعتراه الهزال وأخذته رعشة دائمة لا تنقطع عنه.وأخذ أهله يراقبوه حتى لا يخرج فأخذ يحتال على أهله فلم يجد فرصة فأتى إلى أمه وقبل قدميها وقاسمها بالله أن تتركه ليتريض في الهضاب لعله تنفرج همومه فرقّت له وتركته فخرج وجعل يمر ببيت ليلى فلا ينظر إليه ثم أنشد قائلاً :

ألا أيها البيت الذي لا أزوره وإن حله شخص إليّ حبيب
هجرتك إشفاقا وزرتك خائفاً وفيك عليَّ الدهر منك رقيب
سأستعتب الأيام فيك لعلها بيوم سرور في الزمان تثوب
لئن حال واش دون ليلى لربما أتى اليأس دون الأمر فهو غضيب
صددت وأشمت العدو بصرمنا أثابك يا ليلى الجزاء مشيب

قال وقد اجتمع بقيس عزوة من قومه ممن كان ينادمهم حال صحته وقد ذهبوا به حين بنى الثقفي بليلى. فعزموا على قيس أن يسافروا به متنزهين في أحياء العرب ليذهب ما به. فساروا وهو معهم تعاوده الصحة دوراً والجنون دوراً وهم يردون به كل منتزه ويعرضون عليه من بنات العرب كل من أجمع على حسنها.وأنهم غفلوا عنه ذات ليلة ثم افتقدوه فرأوه قد ذهب.فركب ابن عم له في طلبه فرآه عند مشرعة وبين يديه ظبية لا حراك بها وهو يمسح عنها التراب ويقبلها ويبكي وينشد قوله.

أيا شبه ليلى لا تخافين أنني لك اليوم من وحشية لصديق
فعيناك عيناها وجيدك جيدها سوى أن عظم الساق منك دقيق

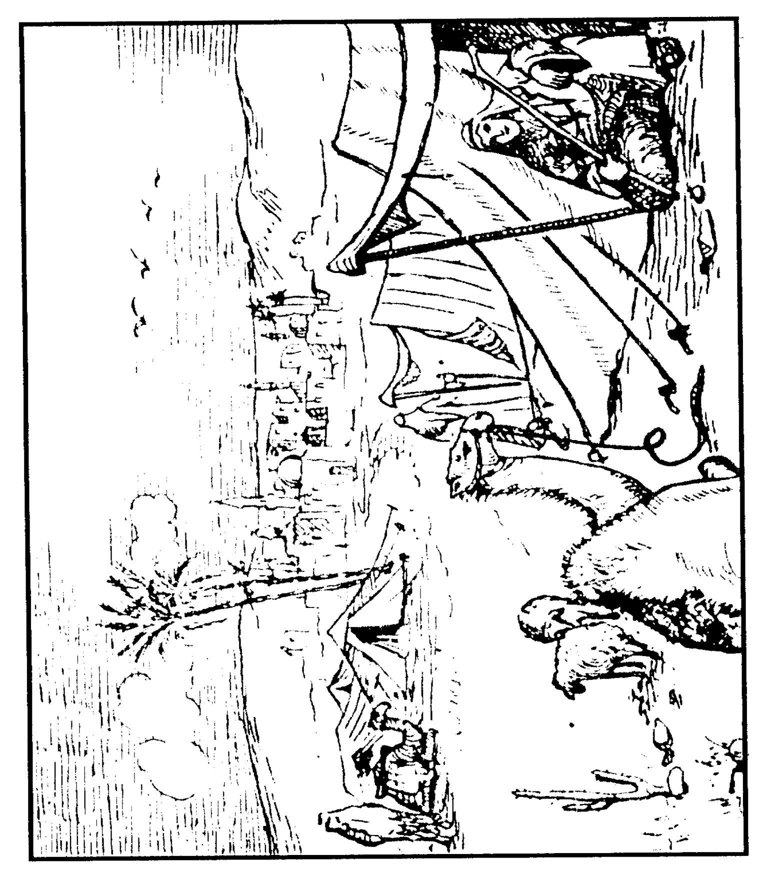
فوقف على رأسه وقال له هيا بنا نذهب فلم يجبه قيس فقال له



قيس يقبل الظبية ويمسح عنها التراب ..

قم لنمر بدار ليلى قال فقام معه فلما جاء إلى أصحابه جلس قيس بينهم متفكراً لا يخاطبهم حتى جاء الليل فلما كان السحر هبت نسمة وأبرق برق مما يلي حي ليلى من جانب بني ثقيف فأنشد قائلاً :

طربت وشاقتك الهموم الدوامع غداة دعا بالبين اسفع نازع
شجاه نعياً بالفراق كأنه حريب سليب نازح الدار جازع
فقلت ألا قد بين الأمر فانصرف فلقد راعنا بالبين قبلك رائع
سقيت سماما من غراب فإنني بيَّنت ما أخبرت إذ هو واقع
ألم تَرَ أني لا محب ألومه ولا ببديل بعدهم أنا قانع
ألم ترَ دار الحي في رونق الضحى بحيث انحنت للهضبتين الأجارع
وقد يتناءى الألف من بعد صحبة ويصدع ما بين الخليلين صادع
وكم من هوى أو جيرة قد ألفتهم زماناً فلم يمنعهم البين مانع
كأني غداة البين ميّت حوية أخو ظمأ سدت عليه المشارع
يخلص من أوصال ماء صبابة فلا الشرب مبذول ولا هو نافع
وبيض تطلى بالعبير كأنها نعاج الفلا جبَّت عليها البراقع
تحمّلن من وادي الأراك وأومضت لهن بأطراف العيون المراتع
فما جئن ربع الدار حتى تشابهت هجائنها والجون منها الجوامع
وحتى حملنا الجور من كل جانب وخاضت صدور الرقم منها الأكارع
فلما استوت تحت الخدور وقد جرى عبير ومسك بالعرانين رادع
أشرن بأن حثوا الجمال فقد بدا من الصيف يوم لافح الظل مانع
فلما لحقنا بالحمول تباشرت بنا مقصرات عاب عنها المطالع
يعرضن بالدل المليح وإن يرد خباهن مشغوف فهن موانع
فقلت لأصحابي ودمعي مسبّل وقد صدع الشمل المشتت صادع
أليلى بأبواب الخدور تعرضت لعيني أم قرن من الشمس طالع



مضارب خيام آل قيس وليلى وقومهم في بطاح مكة .

قال وقام عليه أبناء عمه وأصحابه فحادثوه في السلو فزاد في الهيام ولما عوفي جعل يعاود موضعها ويتمرغ في التراب ويبكي إلى الليل وعزم على التوحش والخروج إلى الصحارى والقفار.فأشار أهل الحي على أبيه أن يحجج به إلى مكة لعل الله ينجيه من هذا البلاء الذي هو فيه.فتأهب والده وقومه إلى الحج وساروا جميعهم قاصدين مكة.فلما وصلوا إلى ذلك أناخوا رحالهم وأقاموا بيوتهم في أباطح مكة ثم توجهوا جميعاً نحو الحرم ليؤدوا مناسكهم ويطوفوا بالبيت الحرام. فقام والد قيس وقال له يا قيس تعلق بأستار الكعبة واسأل الله أن يعافيك مما أنت فيه ومن حب ليلى.قال فتعلق قيس بأستار الكعبة وقال اللهم زدني لليلى حباً وبها كلفاً ولا تنسني ذكرها أبداً.

أما ما كان من أمر ليلى فإنها مرضت مرضاً شديداً واعتراها الهوى والهزال والضعف حتى صارت كالخيال وذلك ليأسها من مقابلة قيس وحجبها عنه وإكراهها بزواجها ورداً فكان لا يقر لها قرار ولا يهدأ لها بال وكانت تبكي ليلاً ونهاراً.وقد يئس الأطباء من مداواتها وقد علم بعض القوم من أهل ليلى أن قيساً ووالده وصحبهم خرجوا إلى مكة لأداء فريضة الحج وكانوا هؤلاء ممن يهمهم أمر ليلى وقيس ويكرهون ورداً زوج ليلى فتشاوروا بأن يدخلوا على أبيها وزوجها ويظهرون اهتمامهم بليلى وحزنهم عليها ويشيرون عليهم بأن يحجوا بليلى ولعلهم يجدون هناك من يطببها.قال فلما تكلم القوم معهم بذلك سمع والدها وزوجها مقالهم تأهبوا للذهاب إلى الحج ولم يعلم والد ليلى بأن قيساً وأبيه قد سبقوهم بالوصول إلى مكة.فلما وصلوا إلى الأباطح وأناخوا رحالهم ونصبوا خيامهم وقد علم والد ليلى بأن أخيه وابنه قيس هم في ذلك الوادي أمامهم

فتكدر. ولو علم بذلك ما خرج إلى الحج ولكن صبر ولم يظهر كدره لأحد من القوم. وكان حريصاً على ليلى من أن تسمع أن قيساً موجوداً في هذا المكان فتخرج إليه أو يخرج إليها ولكن ما إن مكث قليلاً حتى شاع الخبر وبلغ قيس بأن ليلى قد وصلت وعلم بما فعله والدها ففرح بوصولها رغم ما فعله والدها من حجبها ومراقبتها فأنشد قائلاً :

ألا أن ليلى العامرية أصبحت ... تقطع إلّا من ثقيف حبالها
همو حبسوها محبس البدن وابتغى ... بها المال أقوام ألا قل مالها
إذا ما التقت والعيس صفر من القرى ... من العين جلى عبرة العين حالها
خليلي هل من حيلة تعلمانها ... فيدني بها تكليم ليلى احتيالها
فإن أنتما لم تعلماها فلستما ... بأول باغ حاجة لا ينالها
كأنّ مع الركب الذين اغتدوا بها ... غمامة صيف زغزغتها شمالها
نظرت بمفضى سيل حوضين ... والضحى تحث بأطراف المحارم آلها
بمنهلة الأجفان هيج شوقها ... مجامعة الألآف ثم رئآلها
إذا التفتت من خلفها وهي تعتلي ... على العيس جلى عبرة العين حالها

ودخل ابن عم له يقال له الأوجه فقال له يا قيس أتحب ليلى قال حباً خالط الدم ومازج الأعضاء قال له ما يغني حبك لها وهي مريضة وأنت لا تعودها فتنفس الصعداء وقال :

يقولون ليلى بالبطاح مريضة ... فماذا يغني وأنت صديق
شفى الله ليلى بالبطاح فإنني ... على كل شاك بالبطاح شفيق
غرابية الفبرعين بدرية النسا ... ومنظرها باد الجمال أنيق
وقد صرت مجنونا من الحب هائما ... كأني عان في القيود وثيق

برى حبها جسمي وقلبي ومهجتي فلم يبق إلا أعظم وعروق
فلا تعدلوا بل إن هلكت ترحموا عليّ ففقد النفس ليس يعوق
وخطوا على قبري إذا مت أسطرا قتيل لحاظ مات وهو عشيق
إلى الله أشكو ما ألاقي من الهوى بليلى ففي قلبي جوى وحريق

قال ثم بكى طويلاً وأنشد مخاطباً نفسه :

ألا يا قيس ليلى بالبطاح مريضة وأنت خليُّ البال تغفو وترقد
فلو كنت يا مجنون تضنى من الهوى لبت كما بات السليم المسهَّد

قال ثم قام وخرج من الخيام ودخل إلى داخل مكة ليدعو لليلى فنظر إلى الناس وهم يدعون ربهم محرمين فرفع يديه ودعا وأنشد قائلاً :

دعا المحرمون الله يستغفرونه بمكة شعثاً كي تمَّحى ذنوبها
وناديت أن يا رب أول سؤلتي بأن تشفي ليلى ثم أنت حسيبها
وأن تشفها مما بها وتزيدني بها عجباً من كان عندي يعيبها
فيا نفس صبراً لست والله فاعلمي بأول نفس غاب عنها حبيبها

قال ثم بعد أن دعا خرج إلى الأباطح ودخل إلى الخيام ولم يهدأ له حال فلما جن عليه الليل قام وخرج ووقف ينظر إلى خيام ليلى مفكراً أين يكون خباؤها بين تلك الخيام وهل استمكن النوم من القوم حتى يذهب إليها أم لا يزالون سمر. ولم يزل يحدث نفسه بذلك ساعة ويناجيها أخرى حتى كاد يجن ثم عزم على المسير.

قال وذهب حتى أتى الخيام وهو يمشي الهوينا لكي لا يشعر به أحد وصار يتسلل من تلك الخيام. فبينما هو كذلك إذ سمع صوتاً خفيفاً يناديه قيس قيس قف. فوقف حائراً وجلاً وإذا هي جارية ليلى كانت

آتية إليه فأخذت بيديه وكان القوم نيام من تعب السفر ثم خطت به قليلاً وإذا هو في خباء ليلى حيث كانت له بالانتظار. فدخل وسلم كل منهم على صاحبه وارتمى قيس في أحضان ليلى وتذكر كلا منهما ألم الفراق ومر العذاب ولم يزالا على ذلك حتى توالى الليل وكاد نجمه يتغور ونادى منادي الصبح بالظهور. وقال فدخلت الجارية وقالت لسيدتها دعي قيس يذهب قبل أن يفيق القوم من نومهم. فلما سمع قيس ما قالته خاف على ليلى وقام متأهباً بالخروج وقبل أن يخرج أنشد قائلاً :-

ووال كفاها كل شيء يهمها ... فليست لشيء آخر الليل تسهر
وليلة ذي دوران جشمتني السرى ... وقد يجشّم الهول المحب المغرر
فبتّ رقيبا للرّفاق على شفا ... أحاذر منهم من يطوف وانظر
اليهم متى يستمكن النّوم منهم ... ولي مجلس لولا اللّبانة أوعر
وبات قلوصي بالعراء ورحلها ... لطارق ليلى أو لمن جاء معور
وبتّ أناجي النفس أين خباؤها ... وكيف لما آتي من الأمر مصدر
فدلّ عليها القلب ليلى عرفتها ... لها وهوى النّفس الذي كاد يظهر
فلمّا فقدت الصّوت منهم وأطفئت ... مصابيح شبّت بالعشاء وأنور
وغاب قمير كنت أهوى غيوبه ... وروّح رعيان ونوّم سمّر
وخفّض عنّي الصوت أقبلت مشية ... الحباب وشخص خشية الحيّ أزور
فحيّيت إذ فاجأتها فتولّهت ... وكادت بمخفوض التّحية تجهر
وقالت وعضّت بالبنان فضحتني ... وأنت أمرؤ ميسور أمرك أعسر
أريتك إذ هنّا عليك ألم تخف ... وقيت وحولي من عدوك حضّر
فوالله ما أدري أتعجيل حاجة ... سرت بك أم قد نام من كنت تحذر
فقلت لها بل قادني الشوق والهوى ... إليك وما نفس من الناس تشعر
فقالت وقد لانت وأفرخ روعها ... كلاك بحفظ ربك المتكبّر

فبتّ قرير العين أعطيت حاجتي أقبّل فاها في الخلاء فأكثر
فيا لك من ليل تقاصر طوله وما كان ليلي قبل ذلك يقصر
ويا لك من ملهى هناك ومجلس لنا لم يكدّره علينا مكـدّر
يمجّ ذكيّ المسك منها مقبّل نقيّ الثّنايا ذو غروب مؤشّر
تراه إذا ما افترّ عنه كأنّه حصى برد أو أقحوان منوّر
وترنـو بعينيها إلـيّ كما رنـا إلى ظبية وسط الخميلة جؤذر
فلما تقضّى اللّيـل إلاّ أقلّـه وكادت تـوالي نجمـه تتغـوّر
أشارت بأنّ الحيّ قد حان منهم هبوب ولكن موعد منك عزور
فمـا راعنـي إلاّ منـاد ترحّلـوا وقد لاح معروف من الصّبح أشقر
فآخر عهد لي بها حيث أعرضت ولاح لها خد نقيّ ومحجـر
هنيئاً لأهـل العامريـة نشرهـا اللّذيذ وريّاهـا الـذي أتذكّـر

قال ثم رجع إلى خيامه وأقام طول يومه مفكراً ولم يخرج من خبائه ولما أمسى عليه المساء دخل عليه أحد أبناء عمه وأسرّ إليه وقال له إن ليلى دخلت إلى مكة ومعها نسوة من قومها يؤدون طوافهم فهيّا بنا لنذهب إليهم قبل أن يرانا أحد من القوم.قال وقام وتأهب وخرج مع ابن عمه إلى داخل مكة فرأى ليلى وهي تخطو بخطواتها الرقيقة بين نسوة من قومها وكان ذلك بين المقام والحجر وكأنها البدر بين النجوم وهم يمشون الهوينا كمشية البقر فأنشد قائلاً :

يا مـن لقـلب متيّـم كلـف يهذي بخود مـريضة النظـــر
وتمشي الهوينا إذا مشت فضلا وهي كمثل العسلوج في الشجر
ما زال طرفي يحار إذ برزت حتّى التقينا ليـلا على قــدر
أبصرتها ليـــــــلا ونسوتها يمشين بين المقـام والحجــر
بيضـاً حسانـاً خرائـداً قطفـاً يمشين هونـاً كمشيـة البقــر

قد فزن بالحسن والجمال معاً وفرن رسلاً بالدّلّ والخفر
ينصتن يوماً لها إذا نطقت كيفما يفضّلنها على البشر

ثم رجعت ورجع قيس ودخل الى خبائه وكان لا يعي شيئاً ولا يدري أين هو وقد مضى عليه ذلك الليل ولم يذق طعاماً ولم يفكر في جوع ولا عطش وإنما كان فكره طائراً في ليلى وأمر ليلى، وكان معه ابن عمه فما زال به وهو يلاطفه حتى خرج به من الخباء وجلس بجانبه وكان القمر مرسلاً نوره على تلك الأباطح وعلى وجه قيس المنبطح في الصحراء وكانت ناقته تسعى أمامه في أعشاب منتشرة تحت نور القمر. فكان يرى في صمت ذلك الليل الرهيب خيام ليلى ونيران قومها على ضوء ذلك القمر الساطع عليها ويسمع صفير الريح المتصادم من هنا وهناك ومرور قطع السحاب التي تتحطم على وجه القمر بين الخدين ما بين بيضاء ناصعة وبين رمادية مشونة بانخزاق والقمر يبدو في غلافها بخيط بسيط ثم يصفو عن وجه مستدير يلفح وجه قيس بنوره الوهّاج فيراسله قيس بزفراته وأنّاته يتقلب يميناً ويساراً منعماً في تموجات الرمل والحصى لا يجد بجانبه صديقاً ولا مؤنساً ولا حبيباً سوى ابن عمه وهراوته التي يسوق بها ناقته. ثم اتجه قيس إلى مغرب القمر قرب السحر وهو مائل للانحدار وقد انحدر دمع عينيه وأنّ أنين المظلوم وشهق بزفيره وتنهد ثم سبح في غيبوبة وارتمى على الثرى. وتذكر احتضان ليلى له في الليلة الفائتة ثم أزاح ذيل خبائه ودخل وله أنّات سمعها أهل الحي في جوف ذلك الليل الصامت وقد سمعت أمّه أنّاته وكانت عيناها تكحل بالنوم ففزعت من نومها وهرولت إليه ودخلت عليه ونظرت له وقالت أقسمت عليك يا بني أن تدع عنك هذا الأمر وسأخطب لك أكبر بنات الحي وأجملهم. فلما سمع من أمه ذلك كان كلامها له علقماً



قيس وليلى وقومهم في منى

وقال لها كيف أسلوها وقد سكنت في روحي صغيرة نشبت أظافر المحبة في جميع جسدي كبيرا. ثم مسك بأوتاد خيمته وصار يتمرغ في التراب مرسلاً دموعه تعقبها أنّات وزفرات. فأخذت أمه وابن عمه يلاطفانه ويداعبانه بألفاظ رقيقة حتى بدا نور الصبح وسمع قيس ضجيجاً فخرج ونظر وإذا بالقوم جميعاً يشدون رحالهم للذهاب إلى عرفات، ورأى قوم ليلى أيضاً متأهبين للذهاب فقام وتأهب ثم جمع قواه وشد رحله وسار مع قومه ووالده. وكان الجميع يسيرون إلى ذلك المجمع العظيم ووصلوا إلى هناك. ولما انتهى بهم ذلك اليوم رجع القوم الى منى واجتمع الناس بها حتى إذا كان الليل سمع هاتفاً في السحر يهتف بليلى فصرخ صرخة ظنوا أن نفسه فلتت وسقط مغشياً عليه فلم يزل كذلك ثم أفاق حائل اللون زاهلاً فأنشد يقول:

عرضت على نفس العزاء فقال لي ... من الآن فايأس لا أعزك من صبر
إذا بان من تهوى وأصبح نائياً ... فلا شيء أجدى من حلولك في القبر
وداع دعا إذ نحن بالخيف من منى ... فهيج أحزان الفؤاد وما يدري
دعا باسم ليلى غيرها فكأنما ... أطار بليلى طائراً كان في صدري

ثم خرج قيس من خبائه هائماً على وجهه في ذلك الليل قاصداً نحو الصوت. قال فبينما هو يمشي إذ صادف حي ليلى ثم رآها فجأة وهي تمشي بين البيوت فعرفها وعرفته فصعق وخر مغشياً على وجهه. وقد أقبل فتيان من حي ليلى ورأوا قيساً ملقى على الأرض وهو في غشيته فحملوه وأخذوه معهم إلى خبائهم خوفاً عليه ومسحوا التراب عن وجهه وأسندوه إلى صدورهم وسألوا ليلى أن تقف له وقفة. فلما رأت ما هو فيه صعب عليها ذلك ثم قالت للفتيان أما هذا فلا يجوز أن أفتضح به ولكن نظرت إلى جانبها فلقت جاريتها مرجانة فقالت

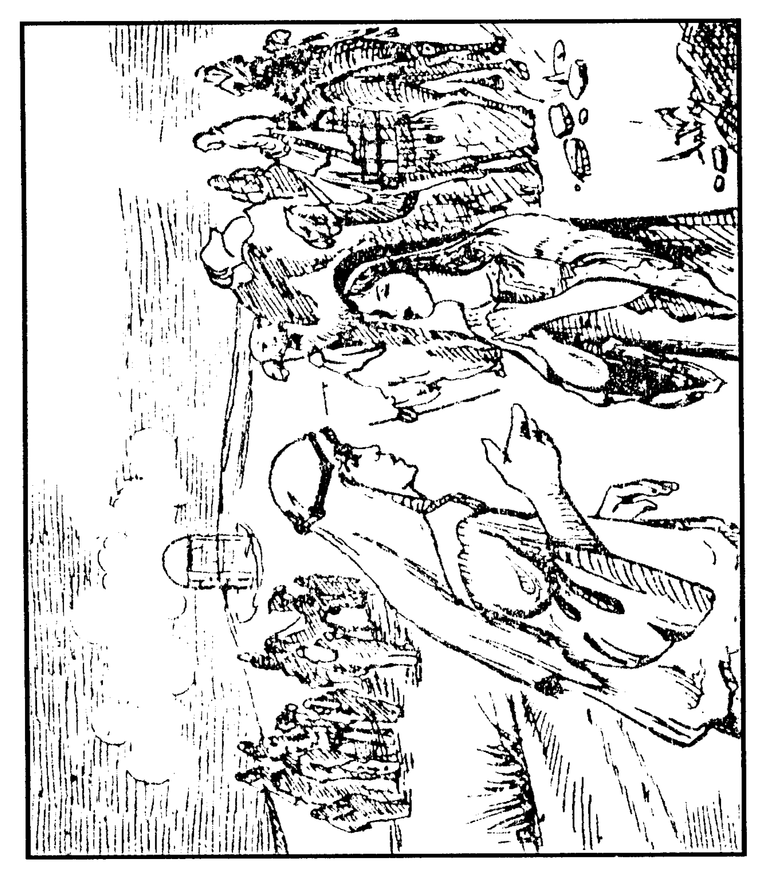
لها اذهبي إلى قيس وقولي له ليلى تقرأ عليك السلام وتقول لك اعزز عليّ بما أنتِ فيه ولو وجدت سبيلاً إلى شفائك لوقيتك بنفسي منه قال فمضت الجارية إليه وأخبرته بقولها فأفاق وجلس وقال ابلغيها السلام وقولي لها هيهات إن دائي ودوائي أنت وإن حياتي ووفاتي لفي يديك ولقد وكّلتِ بي شقاءً لازماً وبلاء طويلاً. ثم بكى وأنشد قائلاً :

أقول لأصحابي هي الشمس ضوؤها ... قريب ولكن في تناولها بعد
لقد عارضتنا الريح منها بنفحة ... على كبدي من طيب أرواحها برد
فما زلت مغشياً عليَّ وقد مضت ... أناة وما عندي جواب ولا رد
أقلّب بالأيدي وأهلي بعولة ... يفدونني لو يستطيعون أن يفدوا
ولم يبق إلا الجلد والعظم غاريا ... ولا عظم لي إن دام ما بي ولا جلد
أدنياي مالي في انقطاعي ورغبتي ... إليك ثواب منك دين ولا نقد
عديني بنفسي أنت وعداً فلربما ... جلا كربه المكروب عن قلبه الوعد
وقد يبتلى قوم ولا كبليّتي ... ولا مثل جدي في الشقاء بكم جد
غزتني جنود الحب من كل جانب ... إذا حان من جند فقولي أتى جند

ثم قال ولما أصبح الصباح وجاء الزوال خرجوا لرمي الجمار فنظر قيس يميناً وشمالاً وهو عند الجمرات فرأى جموعاً من الناس ولم يَرَ ليلى بينهم فأنشد وقال :

ولم أرَ ليلى بعد موقف ساعة ... بخيفَ مني ترمي الجمار بمحصب
ويبدي الحصا منها إذا قذفت به ... من البرد أطراف البيان المخضب
فأصبحت من ليلى الغداة كناظر ... مع الصبح في أعقاب نجم مغرب
ألا إنما غادرت يا أمَّ مالك ... صدى أينما تذهب به الريح تذهب

ولما كان اليوم الثالث من منى خرج قيس وقومه لرمي الجمار فبينا



قيس وليلى أمام العقبة الوسطى في منى

هو عند العقبة الوسطى وإذا بحي ليلى قد أقبل وكانت ليلى داخل هودجها وقد وصلت نحو العقبة الوسطى. ثم نزلت من هوْدجها وقد حسرت برقع خزعن وجهها فبان كأنه البدر في ليلة تمامه ثم رفعت يدها لترمي بها الجمار وكان قيس واقفاً على بعد ينظر كل ذلك.ولم يتمالك نفسه فتخطى القوم حتى صار أمامها فنظرت إليه ليلى نظرة شديدة. ثم قالت له قيس فقال لها أهلاً بليلى فقالت له ما بال وجهك متغيراً شاحباً فأجابها هكذا حال من فارق الأحبة وتنفس الصعداء فأنشد وقال :

أبت ظبية الأحرام أن تتنقبا فأبصرت وجهها كان عني مغيباً
وعارضتها حتى رأتني أمامها فقلت لها أهلاً وسهلاً ومرحبا
ولست بناسيها غداة رأيتها وقد وقفت ترمي الجمار المحصبا
فيا حصيات كن في لمس كفها رزقتنّ ريا من نشا المسك أطيبا

وقد أقبل والد ليلى وسمع ما قال قيس فنظر إليه وشتمه وأدخل ليلى هودجها ورحل القوم ورحلت ليلى معهم وهي تبكي بما فعل والدها مع قيس.فأظهرت الكدر وعظم عليها الأمر واكتوى قلبها بلهيب النار لأنها كانت تحب قيساً حباً ما له من مثيل وقالت بأعلى صوتها إن هذا أمر لا يتم أبداً ولو مت قهراً وكمداً حيث اني لا أرضى بما حصل بقيس.فلما سمع والدها ذلك وعلم ما في ضميرها ومرامها تهددها ودار به الغيظ فلطمها لطمة شديدة فوقعت على الأرض مغشياً عليها فحملتها جاريتها إلى هودجها.فلما رأى قيس ما حل بليلى من أبيها هاج وأراد أن يبطش به فلحق به قومه وأمسكوا بيديه قال ثم ارتحلت ليلى وقومها إلى مكه فتبعهم قيس ملياً ثم لحق به قومه فأوقفوه خوفاً عليه فوقف ينظر إليهم ويبكي حتى غابوا عن عينيه.فكر راجعاً مع القوم

ونظر إلى خف بعير ليلى فأكب عليه يقبله ويقبل أثر قدميها فعنفه قومه على تقبيل التراب فأنشد قائلاً :

وما أحببت أرضكم ولكن أقبل أثر من وطئ الترابا
لقد لاقيت من كلفي بليلى بلاء ما أسيغ به الشرابا
إذا نادى المنادي باسم ليلى عييت فما أطيق له جوابا

قال وسار القوم ومعهم قيس يريدون مكة فلما وصلوا عند الأباطح نزلوا ونصبوا خيامهم بجانب حي ليلى واستقروا بها. قال ولما جن الليل عليه وانفرد بنفسه وآوى إلى مضجعه تذكر ذلك الموقف فجعل يتململ فيه تململ السليم .ثم وثب قائماً وخرج من خبائه في ذلك الليل قاصداً حي ليلى فلحقه بعض قومه وقال له إلى أين يا قيس قال له إلى حي ليلى فجعل يراجعه ويلاطفه وقيس لا يلتفت إليه فبينما هما في الكلام وإذا بوالده قد أقبل فأخذه واحتضنه وقال له إن القوم متوعدوك فلا تفجعني بك. قال فبهت قيس حينما رأى والده يبكي فكر معه راجعاً إلى الخيام هذا ما كان من أمر قيس. أما ما كان من أمر ليلى فإنها لما وصلت الى مكة وأرادت أن تفيض من إحرامها دخلت على امرأة من أحد معارفها من بني عقيل وفي يدها مسواك من أراك كانت تستاك به فتنفست الصعداء ثم قالت سقى الله من أهدى لي هذا السواك فقالت لها تلك المرأة ومن هو قالت قيس بن الملوح وبكت ثم نزعت ثيابها لتغتسل فقالت لها ويح قيس لقد علق مني ما أهلكه من غير أن أستحق ذلك فنشدتك الله أصدق في صفتي أم كذب فقالها لها لا والله بل صدق قال وبلغ قولها إلى قيس فبكى طويلاً ثم أنشد قائلاً :

نبئت ليلى وقد كنا بنخلتها قالت سقى المزن غيثاً منزلا خربا
وحبذا راكب كنا نهش به يهدي لنا من أراك الموسم القضبا

قالت لجارتها يوماً تسائلها لما استحمّت فألقت عندها السلبا
يا عمرك الله ألّا قلت صادقة أصدقت صفة المجنون أم كذبا

قال ثم خرج قيس ذات يوم من خبائه يطلب ابن عم له فمر بزوج ليلى وهو في حي بني عامر عند ابن عم له يصطلي فوقف قيس على رأسه وأنشد قائلاً :

بربك هل ضممت إليك ليلى قبيل الصبح أو قبلت فاهـا
وهل زفت عليك قرون ليلى زفيـف الاقحوانـة في نداهـا

فقال له زوج ليلى اللهم إذا حلّفتني فنعم.فصرخ قيس عندما سمع قوله وقبض الجمر بكلتا يديه وسقط مغشياً عليه فأكل الجمر لحم راحتيه وعض على شفتيه فقطعهما.فقام زوج ليلى مغموما بفعله واستشاط غضباً منه وسبه وشتمه وقال له هل بلغ من قدرك يا قيس أن تدّعي محبة ليلى وتتفوه بإسمها. فأنشد قيس قوله ليغيظه وقال :

فإن كان فيكم بعل لليلى فانني وذي العرش قد قبلت فاها ثمانيا
وأشهد عند الله اني رأيتها وعشرون منها أصبعا من ورائيا
أليس من البلوى التي لا ثوى لها بأن زوجت كلباً وما بذلت ليا

فاغتاظ ورد غيظاً لا مثيل له وقال له احذر من غفلات الزمان فإن عبد الملك بن مروان قد أهدر دمك فقد فضحت ليلى بالأشعار وهتكتها في سائر الأقطار وقد أعلمتك بالخبر فكن على حذر فزاد بقيس الضجر وقال يا هذا بينا كنت أطوف في الآكام زارني زائر وقال لقد مات عبد الملك بن مروان وانقضت أيامه وسوف تصلكم أخباره.فاندهش زوج ليلى من كلامه وارتد راجعاً إلى خيامه ولم يمض يومان من ذلك



زوج ليلى وهو يصطلى وقيس واقف على رأسه

حتى شاع الخبر بموت ابن مروان في قبائل العربان. فخرج زوج ليلى متعجباً من ذلك وطلب الرحيل قاصدين ديارهم. فلما سمعت ليلى بذلك تكدّرت وزادت آلامها. وكانت ليلى منذ تزوجت ورداً لا تنشف لها دمعة ولا تبرد لها لوعة حباً في قيس وخوفاً عليه من ملمات الزمان وكانت مشغوفة بحبه لا يقر لها قرار ولا يطاوعها اصطبار فأنشدت قائلة :

إذا هدأت رجلي بدأت بذكره وأحلم في نومي به وأعيش
وإذا ذكر قيساً تزال بذكره قوى النفس أو كاد الفؤاد يطيش
ووالله ما زال الفؤاد يجنه وإن كان صدري من هواه يجيش

قال ولما سمع ورداً وأبوها ذلك منها قالا لها لئن لم تنتهي عن ذكره لنقتلنكما معاً قال فبعثت ليلى رسولها إلى قيس برقعة مكتوباً فيها :

توعدني قومي بقتلي وقتله فقلت اقتلوني واتركوه من الذنب
ولا تتبعوه بعد قتلي بذلة كفى بالذي يلقاه من سورة الحب

فلما قرأ قيس تلك الرقعة خر مغشياً وصرخ صرخة قوية فقام رجلٌ من قومه وقال يا قيس إني قاصد حي ليلى لأودع ابن عم لي فهل عندك شيء تقوله لليلى قال نعم إذا وقفت بخبائها أنشدها هذا بحيث تسمعك وقال :

الله يعلم أن النفس قد هلكت باليأس منك ولكنّي أمنّيها
منيتك النفس حتى قد أضر بها وأبصرت خلفاً مما أمنّيها
وساعة منك ألهوها ولو قصرت أشهى إليّ من الدنيا وما فيها

قال الرجل فمضيت حتى وقفت بخيامها فلما أمكنتني الفرصة أنشدت بحيث تسمع الأبيات فبكت حتى غشي عليها ثم قالت أبلغه عني السلام وأنشده ذلك.

نفسي فداؤك لو نفس ملكت إذا كأن غيرك يجزيها ويـــرضيها
صبراً على ما قضاه الله فيك على مرارة في اصطباري عنك أخفيها

قال الرجل فلما بلّغته ذلك بكى وغشى عليه ثم أفاق وهو يقول عجبت لعروة العذري حيث قال :

عجبت لعروة العذري أمسى أحاديثـاً لقـوم بعـد قــوم
وعروة مـات موتـاً مستـريحاً وها أنا ذا أموت كل يوم.

ثم خرج قيس من خبائه فنظر إلى حي ليلى وهم يجمعون ذهابهم ويشدون رحالهم قاصدين الذهاب إلى ديارهم ولهم ضجيج وضوضاء وقد نظر إلى هودج ليلى وهو يحمل فوق راحلتها.ثم رأى ليلى وهي تخطو بين القوم وترسل بنظراتها نحو حي قيس تقصد بذلك التوديع له.فلما رأى قيس ذلك أنشد قائلاً :

نادى الّذين تحمّلوا كي يربعوا كيما يودّع ذو هوى ويودّع
ما كنت أخشى بعدما قد أجمعوا وفراقهم بالكره أن لا يربعوا
أن يفجعوا دنفاً مصاباً قلبه من حبّهم في كل يوم يردع
حتـى رأيت حمولهم وكأنّهـا نخل تكفكفهـا شمال زعـزع
وأقول من جزع لليلى بعدما ساروا وسال بهم طريق مهيع
لو كنت أملك دفع ذا لدفعته عنّي ولكـن مـا لهذا مدفـع
لما تذكرنا وقـد كادت بهم بزل الجمال ببطن قرن تطلع
يهوي بهن إذا الحداة ترنموا مور كما مارِ السّفين المقلـع
سلّمت فالتفتت بوجه واضح كَالبدر زيّن زاك جيد اتلع
وبمقلتي ريم غضيض طرفــه أضحى له برياض مرّ مرتـع
قـالت تشيّعنا فقلت صبابـة انّ المحبّ لمن يحبّ مشيّــع

فاسترجعت وبكت لما قد غالها انّ الموفّق فاعلموا مسترجع
فتبعتهم ومعي فؤاد موجع صبّ بقربهم وعين تدمع

قال فما أمسى المساء عليهم حتى أصبحت تلك الأباطح منهم بلاقع لا أثر لهم فيها فبكى قيس وجزع جزعاً شديداً لفراقه من رؤيته لليلى وبعده عنها بعدما كان قريباً منها تسأل عنه ويسأل عنها ويراها وتراه وصار يتذكر كلما مضى عليه حيناً كانت معه في الأباطح. فلما جن عليه الليل وبرز القمر بنوره يتوسط كبد السماء مرسلاً أشعته البيضاء الجميلة على ذلك الوادي الذي خلى من سكانه وقف قيس ينظر يميناً وشمالاً مرسلاً زفراته وأناته فلم يَرَ أمامه من أثر ليلى شيء غير هبوب الريح ونسيم الليل البارد. فجعل يحدث نفسه بمحبتها له ومحبته لها وما أصابه من الهيام من أجلها وفراقه منها ورحيلها. وكان يلتذ بالنظر إلى موضع خيامهم حتى مضي وقت السحر ومال القمر إلى المغيب ولاح ضوء النهار وظهر عليه الاكتئاب من طول السهر واستعظم المصاب وأخذته الرعدة والاضطراب وغاب عنه الصواب وعلا زفيره وشهيقه حتى رق له عدوه وصديقه فأنشد قائلاً :

أيا حرجات الحي حين تحملوا بذي سلم لا جادكن ربيع
وخيماتك اللاتي بمنعرج اللوى بلين بلا لم تبلهن ربوع
ندمت على ما كَان مني ندامة كما يندم المغبون حين يبيع
فقدتك من نفس شعاع فانني نهيتك عن هذا وأنت جميع
فقربت لي غير القريب فأشرقت إليك ثنايا مالهن طلوع

قال ثم غشى عليه وقد شق عليه فراق ليلى ورحيلها فقامت بعض الفتيات من بني عمه وجلسن حوله يحدثونه عن ليلى ويسلونه ويقلن

له يا قيس ما الذي دعاك إلى أن حلت بنفسك ما ترى في هوى ليلى وإنما هي امرأة من النساء وقد رحلت وعشيرتها إلى ديارها. فهل لك في أن تصرف هواك عنها إلى أحد منا فنساعدك ونسْعفك ونجزيك بهواك عن حبها ويرجع إليك ما غرب من عقلك. فقال لهن لو قدرت على صرف الهوى عنها اليكن لصرفته عنها وعن كل أحد بعدها وعشت في الناس سويا مستريحاً لفعلت ولكنني مغلوب على أمري. قال وقام قيس من بينهن وخرج على باب خبائه ونظر مرة ثانية إلى موضع ليلى فوجده خالياً فأنشد قائلاً :

تفرق أنواع الحجيج على منى وفرقهم شعب النوى بين أربع
فلم أرَ داراً مثلها دار غبْطة وملقى إذا التف الحجيج لمجمع
أقل مقيماً راضياً بمقامة وأكثر جاراً ظاعناً لم يودع
فشاقوك لما وجهوا كل وجهة سراعاً وأخلوا عن منازل بلقع
فريقان منهم سالك بطن نخلة وآخر منهم سالك خبت يفرع

ثم تنفس الصعداء وصاح :

طمعت بأمر ليس لي فيه مطمع فأخلفني فالعين من ذاك تدمع
وباعدني من لا أحب بعاده فنفسي عليه كلّ حين تقطع
فلا تحرمي نفساً عليك مضيقة وقد قربت من شدة الوجد تطلع
وليس بحب غير حبِّيك لذة ولست لشخص بعد شخصك أجزع
وللصبر خير حين بانت بودّها وزجر فؤاد كان للبين يخشع

قال ولما سمعت الفتيات منه ذلك القول خفن عليه وقمن له وأدخلنه الخباء وجلسن حوله يحدثونه وهو عنهم غائب وقد غِشي عليه. فقامت إحداهن وقالت يا قيس ما أعجبك في حسن ليلى. فلما سمع ذلك أفاق

من غشيته وقال كل شيء رأيته وشاهدته وسمعته منها أعجبني والله ما رأيت شيئاً منها قط إلا كان في عيني حسنا وبقلبي علقاً.ولقد جهدت أن يقبح عندي أو يسمع أو يعاب لأسلو عنها فلم أجده.فقلن له صفها فأنشد قائلاً :

موسومة بالحسن ذات حواسد ان الجمال مظنة للحسد
وترى مدامعها ترقرق مقلة سوداء ترغب عن سواد الاثمد
خود إذا كثر الكلام تعوذت بحمى الحياء وإن تكلم تقصد

قال وخرج قيس من خبائه هائماً على وجهه فسمع بذلك والده فأرسل في طلبه رجلاً من بني عمه فمضى الرجل ولم يزل يرقب حتى لقيه في إحدى الصحارى فوقف على رأسه وقال له يا قيس هلم إلي فإن أباك يريد الرحيل إلى حي ليلى فقال له قيس أصحيح ما تقول قال نعم.فقام قيس ورجع معه إلى الحي فدخل فأقبل عليه أبوه وجعل يعلله ويقول له كفى ما بك يا بني فإنَّا راحلون.فما كَان المساء إلا وشدوا مطاياهم قاصدين ديارهم نحو نجد.فمروا في طريق يتشعب وجهتين إحداهما بقرن منازل وهو الطريق الذي ينزل بهما إلى ديار بني ثقيف والآخر الذي يسيرون فيه إلى ديارهم.وما زال أبوه يشاغله بالأحاديث اللطيفة والعبارات الظريفة إلى أن راق ولان ورجع مع أبيه إلى الأوطان وزالت عنه الغموم والأحزان حتى وصلوا إلى ديارهم.ولكن كان قيس مع كل ذلك لا يهدأ له بال ولا يقر له قرار ولا تتركه الهموم والأحزان. ولم يطب له عيش لا بالليل ولا بالنهار. فاحترق قلبه واستولى عليه الجنون بعد الهدوء والسكون وهام على وجهه في الصحارى والتلال وطاف في قلل الجبال حتى ضعف من شدة الانتحال وجف جلده على عظمه لقوة الهزال.فشق ذلك على أهله وعشيرته هذا وكان قيس

يعض على لسانه وشفتيه حتى كاد من فرط الحزن يقطعهما. فبينا هو يدور في تلك الصحارى رأى ناراً في بعض الجهات فدنا منها وإذا حولها قوم رعاة فأنشد قائلاً :

رعاة الليل ما فعل الصباح ... وما فعلت أوائله الملاح
وما بال النجوم معلقات ... بقلب الصب ليس لها براح
كأن القلب ليلة قبل يغدي ... بليلى العامرية أو يراح
قطاة غرها شرك فباتت ... تجاذبه وقد علق الجناح
رعاة الليل كونوا كيف شئتم ... فقد أودى بي الحب المتاح

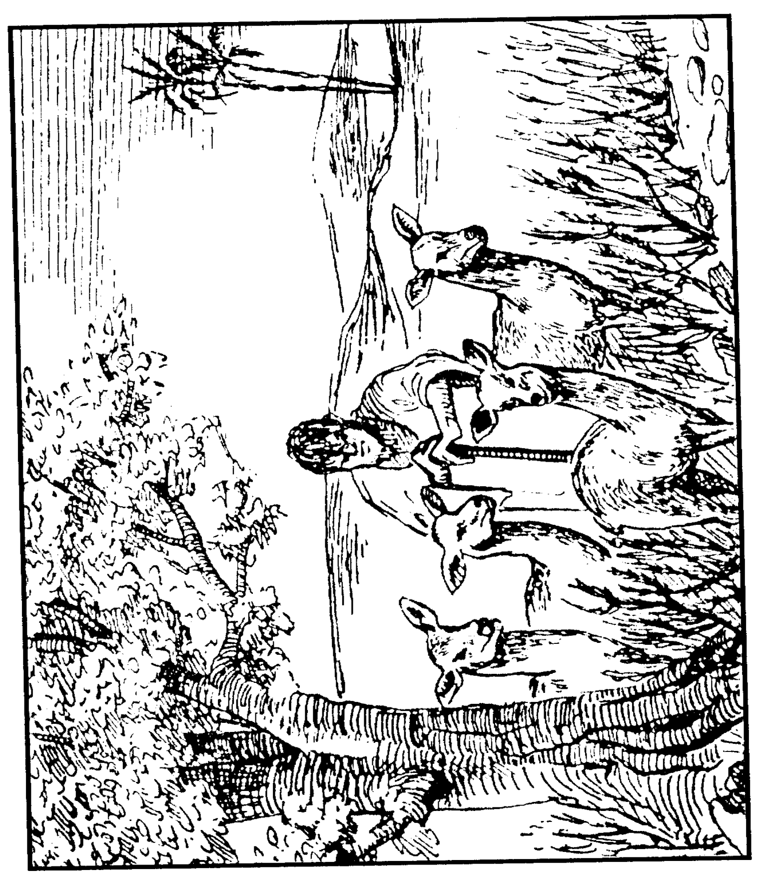
قال وكان رجلٌ مارٌ من بني عقيل فسمع صوت قيس وهو يترنّم بهذه الأبيات فقصده. وقال يا قيس هون عليك من نفسك ودع ليلى فقد عرفنا ما لها عندك ولكن ما أعجبك سواها قال قيس والله ما أعجبني شيء قط فذكرتها الا سقط من عيني واذهب ذكرها بشاشته عندي. غير أني رأيت ظبياً مرة فتأملته وذكرت ليلى فجعل يزداد في عيني حسناً ثم عارضه ذئب وهرب منه فتبعته وانطلقت أعدو خلفه حتى كلّت رجلاي وغاب عني. فأخذت راحلتي ثم انطلقت عليها حتى وجدته وقد فتك به الذئب فأخذت سهما ورميته به فما أخطأت مقتله وبقرت بطنه فأخرجت ما أكله منه ثم جمعته إلى ما بقي من الظبي ودفنته. وأنشد قائلاً :

أبى الله أن يبقى لحي حشاشة ... فصبراً على ما شاءه الله لي صبرا
رأيت غزالاً لا يرتقي وسط روضة ... فقلت أرى ليلى تراءت لنا ظهراً
فيا ظبي كُلْ رغداً هنيئاً ولا تخف ... فإنك لي جار ولا ترهب الدهرا
وعندي لكم حصن حصين وصارم ... حسام إذا عملته أحسن الهبرا

فما راعني إلاّ وذئب قد انتحى فأعلق في أحشائه الناب والظفرا
ففوقت سهمي في كلوم غمزتها فخالط سهمي مهجة الذئب والنحرا
فأذهب غيظي قتله وشفى جوىً بقلبي ان الحر قد يدرك الوترا

قال الرجل فحاولت فيه أن يرجع إلى رشده وعقله ويعود برفقتي إلى الحي. فأبى ذلك وهام في تلك الصحاري والقفار مع الوحوش في البرية وذهب إلى حيث لا أدري.

قال الراوي وكان نوفل بن مساحق دائماً يتطلب لأخبار قيس. وقد قدم إلى البادية في تلك السنة فدخل على أبي قيس وسأله عنه فقالوا لم نرَ له أثر ولم نعرف عنه خبر وقد هام على وجهه وتوحش وما لنا به عهد ولا ندري إلى أين صار-قال ثم خرج نوفل ذات يوم يتصيد الأروا ومعه جماعة من أصحابه ثم قال نوفل : حتى إذا كنا بناحية الحمي إذا نحن بأراكة عظيمة قد بدا منها قطيع من الظباء وكان بينهم شخص إنسان يرى من خلال تلك الأراكة. فعجب أصحابي من ذلك فعرفته وأتيته فإذا هو قيس فنزلت عن دابتي وتخففت من ثيابي وخرجت أمشي رويداً حتى أتيت الأراكة فارتقيت حتى صرت أعلاها وأشرفت عليه وعلى الظباء التي حوله وقد تدلى الشعر على وجهه فلم أكد أعرفه إلا بتأمل شديد وهو يرتعي في ثمر الأراكة. ثم انصرفت الظباء وانصرف قيس معهن ولم أتمكن من الاجتماع به فرجعت متأسفاً وشكوت ذلك إلى شيخ كبير في بني سعد. فقال لي الشيخ إن لقيس دابة يألفها وأنها تحمل له الطعام والخبز أحياناً فيأكل منها. ولو صحبتها لأمكنك أن تظفر به. ففعل نوفل بما قاله شيخ بني سعد له فهرب قيس منها ورجع نوفل إلى الشيخ مرة ثانية وأخبره بذلك فقال شيخ بني سعد يا نوفل إني قرأت في سالف الأخبار أن ملكا قال لوزيره أخبرني عن أعظم رائحة



قيس يرتع مع الضباء حول الأراكة ..

وأقوى لذة وأشد حافراً على الأرض وقد أمهلتك ثلاثة أيام فإن لم تجب جللتك بالسيف. فمضى الوزير مهموماً وكان له ابنة قد اتخذت لها قصراً مفتوحاً إلى الأربع جهات وكان ذلك القصر على قارعة الطريق لنزهتها فلما رأت ما بأبيها استعطفته حتى أخبرها بما قاله الملك له فاستسهلت الأمر وقالت له إذا عدت إليه من الغداة فأخبره أن أقوى رائحة رائحة الخبز وأعظم الأشياء لذة الجماع وأشد حافراً على الأرض حافر البغال.قال فذهب الوزير وأخبر الملك بذلك فقال له الملك أخبرني من أعلمك ذلك فصدقه الأمر فاستحضر الملك البنت وقال لها لئن لم تخبريني عن تعليل ذلك وإلا ضربت عنقك حيث أنك بنت بكر ولم تعلمي من أحوال النساء ولا لذة الجماع.فقالت له أيّد الله الملك إن قصري متفتح للاهوية فلم أجد من لدن قطنت به رائحة يتكيف بها الهواء أعظم من رائحة الخبز.ولم يتحرك جدار القصر من شيء غير مشي البغال.وأما الجماع فإنّني أخذته من شدة الألم في الوضع وما شاهدته من مقاساة النساء فيه. فلو لم يكن الجماع أعظم لذة ما عدن إليه. قال الملك للبنت لقد صدقت. فقال الشيخ إلى نوفل أن تصنع خبزاً وتجعله في طابق يضم بخاره وتفتحه حيث يشمه فإنه يقف لبعد عهده به وتذكر له ليلى فيزداد أنساً. قال نوفل فمضيت وعملت بما قاله الشيخ وطيبت الخبز بالأقاويه حتى إذا أقبل قيس ولمحته من خلال تلك الأراكة كشفت عن الخبز وصعدت على الأراكة لتشرب تلك الظباء التي كانت معه فشربت تلك الظباء وانصرفت ووقف قيس يشم رائحة الخبز فرفعت صوتي وأنشدت :

أتبكي على ليلى ونفسك باعدت مزارك من ليلى وشعباكما معا

فلما سمع قيس ذكر ليلى اندفع يقول :



فما حسن أن يأتي الأمر طائعاً وتجزع إن داعي الصبابة أجزعا
بكت عيني اليسرى فلما زجرتها على الجهل بعد الحلم أسبلتا معا
واذكر أيام الحمى ثم انثني على كبدي من خشية أن يصدعا
فليست عشيات الحمى برواجع إليك ولكن خل عينيك تدمعا
معي كل عز قد عصى عزلاته بوصل الغواني من لدن أن ترعرعا
إذا راح يمشي في الرداءين أسرعت إليه العيون الناظرات التطلعا

ثم سقط مغشياً عليه فتمثلت له بقوله :

يا دار ليلى بسقط الحي قد درست إلاّ الثمام وإلاّ موقد النار
أبلى عظامك بعد اللحم ذكركها كما ينحت قدح الشوحط الباري
ما تفتأ الدهر من ليلى تموت كذا في موقف وقفته أو على داري

قال فرفع قيس رأسه وقال من أنت حياك الله فقلت له نوفل أخبرني ما صنعت بعدي فأنشد. ألا حجبت ليلى الأبيات السابقة الذكر وجعل يفاوضني في الكلام حتى سنح له قطيع الظباء. فطفق يعدو حتى اختلط بها وأنا أنظر إليه حتى غاب عن بصري ورجعت الحي بدون جدوى هذا ما كان من أمر قيس.

وأما ما كان من أمر ليلى فإنها كانت لا تستطعم بطعام ولا تلذ بمنام من يوم أن فارقت قيس بل كانت تقضي ليلها بالبكاء وتخاطب نفسها وقد زال نشاطها وتمكن منها المرض. فلما رآها زوجها وقومها على تلك الحالة رجعوا بها إلى أرض مكة المكرمة لعلهم يجدون لها طبيباً وأقاموا بها مدة من الأيام وقد عرضوها على جميع من يعرفونهم من الأطباء وقد عجز الأطباء عن دوائها وقالوا لعل بها عارض من الجن وقد سمع بعض من العرب المقيمين بمكّة والذين يعرفون أباها وزوجها فأشاروا عليهم بالذهاب بها إلى وادي تيماء وهو واد يبعد عن المدينة المنورة

حيث هناك أطباء يعرفون بمساس الجن وحكماء أقوياء ماهرين بالطب قال فتأهبوا بها إلى السفر في ذلك الوادي وقد صعب على زوجها ذلك حيث كان مغرماً بها رغم ما كان يسمع أنها تحب قيس.فما زالوا يسيرون من وادي إلى وادي حتى وصلوا إلى ذلك الوادي وضربوا خيامهم وضربوا لليلى خيمة خاصة حيث كانت لا تريد أحداً معها وكانت تتضايق من مخالطة الناس ما عدا خادمة خاصة لها وهي جاريتها التي كانت تحمل لها أسرارها.وعندما وصلت إلى ذلك الوادي تنشقت الهواء وقد ردت إليها روحها وعاد لها قليل من نشاطها.وكان في تلك الأيام أمطار شديدة فبينما ليلى جالسة في خبائها وإذا برجل قد أقبل من ناحية نجد قاصداً المدينة وقد أصابه المطر فعدل الى خيمة من تلك الخيام المضروبة وكان عدوله إلى خيمة ليلى.فلما وصل إلى تلك الخيمة تنحنح وكان هذا الرجل هو رباح بن عامر من الحريشين فإذا بامرأة واقفة بباب الخباء فسألها التظلل فقالت له انزل.قال فنزلت من راحلتي فأشارت إلى ناحية فدخلت وقد أقبل قوم ومعهم ابل وغنم كثيرة إلى الخيام وهم مسرعون من شدة ما أصابهم من المطر ودخلوا إلى الخيام التي كانت تجاور خيام ليلى. ولم تزل السماء ترسل المياة كأفواه القرب واشتد الظلام وتراكم الغيام ولم تر أثراً لأحد في ذلك الوادي ولم تزل تلك المرأة واقفة على باب ذلك الخباء تنظر يميناً وشمالاً فتعجبت من ذلك.فبينما أنا أفكر في أمر هذه المرأة وإذا بي أسمع صوتاً من داخل ذلك الخباء الذي كنت بجانبه تقول يا مرجانة سلي الرجل من أين أقبل فسألتني تلك المرأة التي أشارت اليّ بالنزول. فقلت لها من ناحية نجد وإذا بها تقول دعيه يدخل فدخلت إلى ناحية من الخيمة فرفعت ستارة كانت بيني وبينها وإذا أنا بامرأة بيضاء كالشمس المضيئة فائقة الجمال

لم ترَ عيني أجمل منها قط ولكن قد نحلها المرض. ثم قالت لي يا عبدالله ن أي بلاد نجد وطئت فقلت كلها قالت فيمن نزلت هناك قلت ببني عامر فتنفست الصعداء ثم قالت فبأي عامر نزلت فقلت ببني الحريش فاستعبرت. ثم قالت فهل سمعت بفتى منهم يقال له قيس بن الملوح ويلقب بالمجنون قلت بلى والله وعلى أبيه نزلت فنظرت إليه وهو يهيم في تلك الفيافي مع الظباء لا يعقل شيئاً إلا أن تذكر له امرأة يقال لها ليلى العامرية. قال الرجل فما أرى إلا أنها بكت وصرخت صرخة ظننت أن قلبها قد انصدع فقلت لها أيتها المرأة اتقي الله فما قلت بأساً فلا زالت تبكي وتنتحب قليلاً ثم أنشدت قائلة :

ألا ليت شعري والخطوب كثيرة   متى رحل قيس مستقل وراجع
بنفسي من لا يستقل براحة   ومن هو ان لم يحفظ الله ضائع

ثم بكت ثانية حتى سقطت مغشياً عليها فدخلت جاريتها ترش عليها الماء حتى أفاقت فقلت لها من أنت يا أمة الله وما قصتكِ. قالت أنا ليلى المشؤومة على قيس غير المؤنسة له قال الرجل فما رأيت مثل حزنها عليه ووجدها به قال ولما أصبح الصباح وكف المطر ركبت راحلتي وتوجهت إلى حيث أقصد وأنا متعجب من أمرها وأمر قيس هذا. ما كان من امر ليلى.

وأما ما كان من أمر قيس فإنه لا يزال هائماً على وجهه في البراري والقفار حتى لقيه رجل من عشيرته يقال له زيدا بن كعب بن مزاحم وهو ابن عم له فناداه يا قيس فلم يرد عليه جواباً فذكر له ليلى وأنشد الرجل قائلاً :

الا ما لليلى لا تُرى عند مضجعي   بليل ولا يجري بذلك طائر

بلى إن عجم الطير تجري إذا جرت بليلى ولكن ليس للطير زاجر

فلما سمع قيس ذلك أجابه وأنشد قائلاً :

أزالت على العهد الذي كان بيننا بذي الأثل أم قد غيرتها المقادر
فوالله ما في القرب لي منك راحة ولا البعد يسليني ولا أنا صابر
ووالله ما أدري بأية حيلة وأي مرام أو خطار أخاطر
وتالله إن الدهر في ذات بيننا على لها في كل حال لجائر
إذا قيل هذا بيت ليلى يقودني إليه الهوى واستعجلتني البوادر
وانّ انقيادي طوع ما أنا كاره يدلك أنّ المرء ليس بقادر
لواحظنا تجني ولا علم عندها وأنفسنا مأخوذة بالجرائر
ولم أرَ أغبى من نفوس عفائف تصدق أخبار العيون الفواجر
ومن كانت الأجفان حجّاب قلبه إذ أنّ على أحشائه للفواقر
إذا لم أفز منكم بموعد ونظرةٍ إليكم فما نفعي بسمعي وناظري
فلو كنت إذ أزمعت هجري تركتني جميع القوى والعقل مني حائر
ولكن أيامي بحقل عنيزة وبالرضم أيام جناها التجاور
وقد أصبح الود الذي كان بيننا أماني نفس والمؤمل حائر
لعمري لقد كدرت يا أم مالك حياتي وساقتني إليك المقادر

قال ثم غشي عليه وصرخ صرخة وتنفس الصعداء وأنشد ثانياً وقال :

فواكبدي من حب من لا يحبني ومن زفرات ما لهن فناء
أرأيتك إن لم أعطك الحب عن يدي ولم يك عندي إذا أبيت اباء
أتاركتي للموت أنت فميِّت وما للنفوس الخائفات لقاء

ثم قرب مني وقال يا زياد من أي البلاد أقبلت قلت من تيماء فقال هل سمعت شيئاً عن ليلى أو مررت بحيها قلت وعلى أبيها نزلت

ولقد سمعت أنهم أتوا بها من ثقيف لمعالجتها حيث أنها تعاني من المرض أشده. قال فلما سمع قيس ذلك بكى بكاء شديدا وأنشد قائلاً :

تذكرت ليلى والسنين الخواليا   وأيام لا أعدى على الدعر عاديا

ويوم كظل الرمح قصرت ظله   بليلى فلهاني وما كنت لاهيا

فيا ليل كم من حاجة لي مهمة   إذا جئتكم بالليل لم أدر ما هيا

خلـيلي ألا تبكيـاني التمس   خليلاً إذا أنزفت دمعاً بكى ليا

فما أشرف الايقاع الا صبابة   ولا أنشد الأشعار إلا تداويا

وقد يجمع الله الشتيتين بعدما   يظنان كل الظن ان لا تلاقيا

لحى الله أقواما يقولون أننـا   وجدنا طوال الهجر للحب شافياً

وعهدي بليلى وهي ذات مؤصد   تـرد علينا بالـعشي المواشيـا

فشب بنو ليلى وشب بنو ابنها   وإعلاق ليلى في فؤادي كما هيا

إذا ما جلسنا مجلساً نستلذه   تواشوا بنا حتى أمل مكانيا

سقى الله جارات ليلى تباعدت   بهن النوى حيث احتللن المطاليا

بتمرين لاحت نار ليلى وصحبتي   بقرع العصا ترجى المطي الحوافيا

فقال بصير القوم لمحة كوكب   بدا في سواد الليل من ذي يمانيا

فقلت لهم بل نار ليلى توقدت   بعليا تسامى ضوؤها فبدا ليا

خليلي لا والله لا أملك الذي   قضى الله في ليلى ولا ما قضى ليا

قضاها لـغيري وابتـلاني بحبها   فهـلا بشـيء غير لـيلى ابتلانيـا

وخبرتماني أنّ تيمـاء منــزل   لليلى إذا ما الصيف ألقى المراسيا

فهذي شهور الصيف عناقد انقضت   فما للنوى ترمى بليلى المراميا

ولـو أنّ واش باليمامـة داره   وداري بأعلى حضرموت اهتدى ليا

وماذا لهم لا أحسن الله حالهم   من الحظ في تصريم ليلى حباليا

وقد كنت أعلو حب ليلى فلم يزل   بي النقض والابرام حتي علانيا

فيا رب سوّ الحب بيني وبينها يكون كفافا لا علي ولا ليا
فما طلع النجم الذي يهتدى به ولا الصبح إلا هيّجا ذكرها ليا
ولا سرت ميلا من دمشق ولا بدا سهيل لأهل الشام الا بدا ليا
ولا سيمت عندي لها من سيمة من الناس إلّا بل دمعي ردائيا
ولا هبّت الريح الجنوب لأرضها من الليل إلّا بتّ للريح حانيا
فان تمنعوا ليلى وتحموا بلادها عليّ فلن تحموا عليّ القوافيا
فأشهد عند الله أنيّ أحبها فهذا لها عندي فما عندها ليا
قضى الله بالمعروف منها لغيرنا وبالشوق مني والغرام قضى ليا
وانّ الذي أمّلت يا أم مالك أشاب فؤادي واستهان فؤاديا
أعد الليالي ليلة بعد ليلة وقد عشت دهراً لا أعد اللياليا
وأخرج من بين البيوت لعلني أحدث عنك النفس بالليل خاليا
أراني إذا صليت يممت نحوها بوجهي وإن كان المصلي ورائيا
وما بي أشراك ولكنّ حبها وعظم الجوى أعيي الطبيب المداويا
أحبّ من الأسماء ما وافق إسمها وأشبهه أو كان منه مدانيا
خليلي ليلى أكبر الحاج والمنى فمن لي بليلى أو فمن ذلها ليا
لعمري لقد أبكيتني يا حمامة العقيق وأبكيت العيون البواكيا
خليلي ما أرجو من العيش بعدما أرى حاجتي تشرى ولا تشترى ليا
وتجزم ليلى ثم تزعم انني سلوت ولا يخفى على الناس ما بيا
فلم أر مثلينا خليلي صبابة أشد على رغم الأعادي تصافيا
خليلان لا ترجو اللقاء ولا ترى خليلين إلّا يرجوان تلاقيا
وإني لا أستحييك أن تعرض المنى بوصلك أو أن تعرضي في المنى ليا
يقول أناس عليّ مجنون عامر يروم سلوا قلت إني لما بيا
بي اليأس أو داء الهيام أصابني فإيّاك عني لا يكن بك ما بيا
إذا ما استطال الدهر يا أم مالك فشأن المنايا القاضيات وشانيا

إذا اكتحلت عيني بعينك لم تزل ... بخير وجلت غمرة عن فؤاديا

فأنت التي إن شئت أشقيت عيشتي ... وأنت التي إن شئت أنعمت باليا

وأنت التي ما من صديق ولا عدو ... يرى نضوماً أبقيت إلّا رثى ليا

أمضروبة ليلى عليّ أزورها ... ومتخذ دين لها أن ترانيا

إذا سرت في الأرض الفضاء رأيتني ... أصانع رحلي أن يميل حاليا

يميناً إذا كانت يميناً وإن تكن ... شمالاً ينازعني الهوى عن شماليا

وإني لأستغشي وما بي نعسة ... لعل خيالا منك يلقى خياليا

هي السحر الاّ أن للسحر رقية ... وإني لا ألقى لها الدهر راقيا

إذا نحن أدلجنا وأنت أمامنا ... كفي لمطايانا بذكراك هاديا

ذكرت نار شوقي في فؤادي فأصبحت ... لها وهج مستضرم في فؤاديا

ألا أيها الركب اليمانيون عرجوا ... علينا فقد أمسى هوانا يمانيا

أسائلكم هل سال نعمان بعدنا ... وحب إلينا بطن نعمان واديا

وأبكيتماني وسط صحبي ولم أكن ... أبالي دموع العين لو كنت خاليا

ويا أيها القمريتان تجاوبا ... بلحنيكما ثم اسجعا علانيا

فان أنتما استطربتما أو أردتما ... لحاقا باطلال الفضى فاتبعانيا

ألا ليت شعري ما لليلى وما ليا ... وما للصبا من بعد شيب علانيا

ألا أيها الواشي بليلى ألا ترى ... إلى من تشيها أو لمن أنت واشيا

لئن ظعن الأحباب يا أم مالك ... فما ظعن الحب الذي في فؤاديا

فيا رب إذ صيرت ليلى هي المنى ... فزنّي بعينيها كما زنتها ليا

ويا رفقة مرت بجرعاء مالك ... تؤم الحمى أنضاؤها والمطاليا

ألم ترَ أن الحي طال نحيبهم ... لليلى ولبوا للفراق مناديا

ولم أنس يوماً بالحمى طاب ظله ... ونلنا به عذبا من العيش صافيا

ذكرنا شكاوى ما لقينا من الهوى ... فلما تصالحنا نسينا التشاكيا

على مثل ليلى يقتل المرء نفسه ... وإن كنت من ليلى عَلَى اليأس طاويا

فلا تطمعوا في برء ما بي فإنه هو الداء قد أعيا الطبيب المداويا
أبى الله أن يخفى غرام وراءه دموع وأنفاس صدعن التراقيا
فبلـغ نداماي الذيـن توقعـوا لقائي بعد اليوم أن لا تلاقيا
خليلي إن ضنوا بليلى فقربـا لي النعش والأكفان واستغفرا ليا

قال فلما انتهى قيس من شعره تمايل زياد طرباً وعجباً وقال له لله درك على هذه الأبيات وهذه الألفاظ الرقيقة والمعاني البديعة التي تشرح الخواطر وتجلي الكروب حيث لم تترك يا قيس من طرائف الغزل في وصف الحبيب فهل الحب صيرك إلى ما أرى. فقال قيس اللهم نعم وقد سبب لي أكثر من ذلك ومما ترى. ثم تزايدت حسراته وتصاعدت زفراته فتنهد وبكى وتأوه وقال يا زياد قد جفاني الأصحاب وتخلى عني الأهل والأحباب فيا له من أمر عظيم وخطب جسيم. فقال له زياد يا قيس ارجع عما أنت فيه فإن دمت على هذه الحالة فإنك هالك لا محالة، فأجابه قيس قائلاً له كيف أطيق الصبر وقد اشتعل قلبي من الهوى بجمر الغرام بالله عليك أذهب عني ودعني أقاسي العذاب وأقتحم موارد الهلاك حيث كلما عزاني معزّي ونهاني ناهي ونصحني ناصح ازدادت فيها محبتي وقويت إليها رغبتي. ثم أنشد قائلاً :

إليك عني فإني هـائم صب أما ترى الجسم قد أودى به العطب
لله قلبي ماذا قد أتيح لـه حر الصبابة والأوجاع والوصب
ضاقت عليّ بلاد الله ما رحبت يا للرجال فهل في الأرض مطرب
البين يؤلمني والشوق يحرجني والدار نازحة والشمل منشعب
كيف السبيل إلى ليلى وقد حجبت عهدي بها زمنا ما دونها حجب

قال زياد فأخذتني الشفقة عليه ومال قلبي إليه وعاهدت نفسي أن لا أفارقه حتى يصل إلى مطلوبه وقلت له يا قيس انه يعز علي ويعظم

لدي أن أراك وأنت في هذا الحال تقاسي العذاب والنكال فهل لك أن تسير معي إلى الديار وأنا أزوجك بمن هي أحسن وأحلى من ابنة عمك ليلى : قال فلما سمع كلامي جمدت عيناه وعظمت بلاياه وقال يا زياد لا سمعت لك قولاً ولا تركت ليلى على طول المدى ثم أنشد قائلاً :

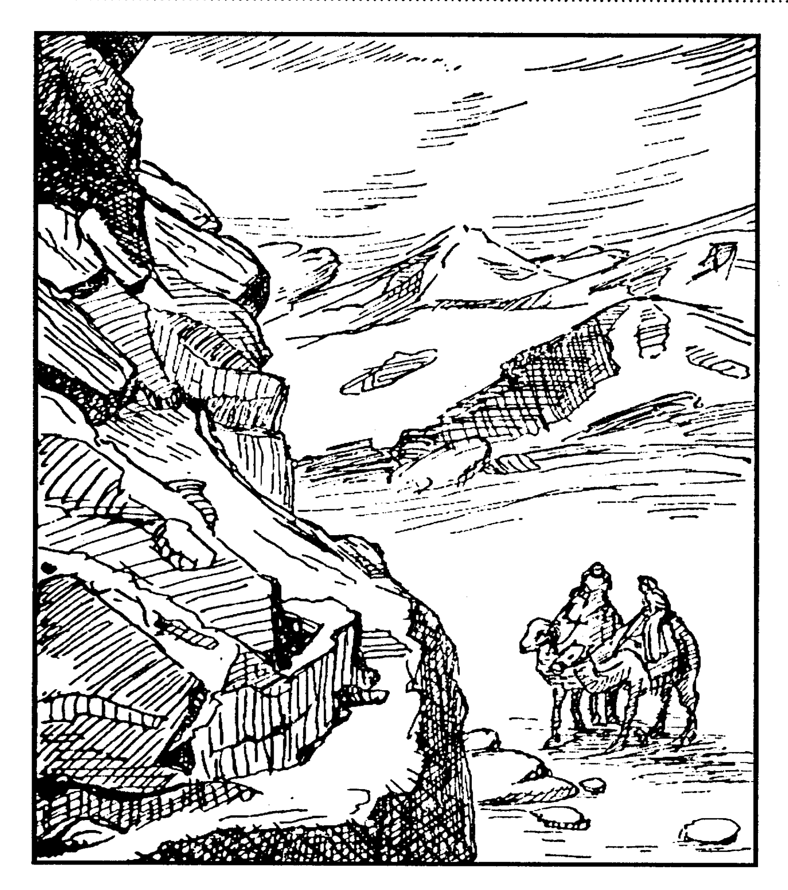
عفا الله عن ليلى وإن سفكت دمي ... فإني وإن لم تجزني غير عائب
عليها ولا مبد لليلى شكايـة ... وقد يشتكي المشكي إلى كل صاحب
يقولون تب عن ذكر ليلى وحبها ... وما خلدي عن حب ليلى بتائب
إذا جن ليلي فاضت العين ادمعا ... على الخد كالغدران أو كالسحائب
أود طلوع الفجر والليل قائل ... لقد شدت الأفلاك بعد الكواكب
فما أسفى إلا على ذوب مهجتي ... ولم أدر يوماً كيف حال الحبائب

ثم قال لي يا زياد فهل لك أن تدلني الطريق حتى أذهب إلى ليلى فقلت له يا قيس وأين أنت من وادي تيماء.فقال يا زياد لا بد من المسير تلقاء تيماء ولو أني ألقي المضاعب والأهوال في حب ليلى ورؤيتها فلما سمع زياد منه ذلك وعلم أنه لا بد من مسيره خاف عليه من أن يهيم في الصحاري والتلال وتحمل المشقات والأثقال.أخذ يلاطفه في الكلام وصار يطيب خاطره وقال له إني سأعود معك وأكون برفقتك ولا أتخلى عنك حتى تنال مطلوبك وفي الغد سنرحل. ولم يزل زياد يحادثه ويلاطفه حتى عاد إليه صوابه ورشده.ولما أصبح الصباح قام قيس وزياد وشدا رحالهما قاصدين المسير إلى وادي تيماء ولم يزالا سائرين حتى وصلا إلى جبل يقال له التوباد فوقف قيس وتذكر ليلى حينما كان صبيان يرعيان غنماً لأهلهما عند ذلك الجبل وتذكر حينما كان يطوفان هو وليلى به ثم أنشد قائلاً وهو يبكي :

وأجهشت للتوباد حين رأيته ... وكبر للـــــرحمن حين رآني

وأذرفت دمع العين لما عرفته وعهدي بذاك الصرم منذ زمان
فقلت له قد كان حولك جيرة يشبهن تلع شوادن الغزلان
فقال مضوا واستودعوني بلاهم ومن ذا الذي يبقى على الحدثان
وأني لأبكي اليوم من حذرٍ لهم غداً فراقك والحيان مجتمعان
سجالاً وبهتاناً وويلاً ودمعاً وسحاً وتسجاماً إلى هملان
أيا جبل التوباد الذي في ظلالهم غزالان مكحولان مؤتلفان
غزالان شبا في نعيمٍ وغبطة ورغدة عيش ناعم عطران
أرغتهما ختلا فلم أستطعهما ففرا وشيكا بعد ما قتلاني
خليلي أما أم عمر فمنهما وأما عن الأخرى فلا تسلاني
فما صاديات حمن يوما وليلة على الماء دون الورد هن حواني
يرين حباب الماء والموت دونه وهن لأصوات السقاة رواني
بأكثر مني حسرة وصبابة إليها ولكن الفراق عراني
خليلي إني ميت أو مكلم لليلى بحاجتي فامضيا وذراني
أقل حاجتي وحدي فيا رب حاجة قضيت على هول وخوف مكاني
وإنّ أحق الناس منّي تحية مشوقاً لها من لو يشا شفاني
ومن قادني للموت حتى إذا صفت مشاربه سم الزعاف سقاني

قال زياد إن قيساً بعد أن انتهى من شعره صاح صيحة مزعجة ظننت فيها أنّ روحه فارقت جسده ثم سقط على وجهه مغشياً عليه وقد شج جبينه وسال دمه وغاب عن صوابه. فأصابني الذهول عندما رأيته وهو في تلك الحالة السيئة التي صار فيها فقمت مسرعاً إليه ورفعته من الأرض ومن تلك الحجارة التي وقع عليها وأخذته على صدري وكنت أسكب على وجهه الماء وأمسح له دمه. ثم أخذت قطعة من ثوبي وعصبت له رأسه وما زلت به حتى فاق من غشيته وجلس ينظر إليّ تارة وإلى



قيس وزياد أمام جبل التوباد..

الجبل تارة أخرى وهو يشير بأصبعه يميناً وشمالاً ودموع عينيه تجري فوق خديه وكان صامتاً لا ينطق ,ثم نظر إليّ نظرة طويلة كأنه يريد شيئاً فقلت يا قيس ما الذي دهاك فتبسم وأخذ بيدي وقام فقمت معه ومشينا قليلاً حتى وصلنا إلى ربوة عالية من ذلك الجبل. فجلس عليها وأشار لي برأسه فجلست إلى جانبه فكنت أحادثه وأسلّيه لعله ينطق أو يقول شيئاً وقد صار الهجير وحميت الشمس وتصبّب منّا العرق وكان الوقت صيفاً فقلت له يا قيس إلى كم هذا الحال الذي أنت فيه هيا بنا نسير لقد بلغ منّا الجهد ونحن في هذا الوادي وبين هذه الجبال فعند ذلك صاح بي صيحة شديدة دوى منها ذلك الوادي وقال يا زياد كيف أسير وأترك ليلى وحيدة في هذا المكان ألا تنظرها وهي تعلو قمة الجبل. فقلت له يا قيس دع عنك هذه الهواجس والتخيُّلات التي أنت فيها. أين أنت من ليلى إنّ ليلى بوادي تيماء وأنت في جبل التوباد. فقال لي ألا تنظرها فوق الجبل عند القمة وحولها البهم وقد رفعت النقاب عن وجهها. وكان قيس يتخيل ليلى ويتخيل أيام الصبا حينا كانا يرعيان غنم أهلهما حول تلك القمة فصحت به يا قيس دع هذه الوساوس والتخيّلات وهيا بنا نسير وإلا تركتك وتوجهت وحدي. فعند ذلك صاح قائلاً وأنشد :

جبل التوباد حيّاك الحيا ... وسقى الله صبانا ورعى
فيك ناغينا الهوى في مهده ... ورضعناه فكنت المرضعا
وحدونا الشمس في مغربها ... وبكرنا فسبقنا المطلعا
وعلى سفحك عشنا زمنا ... ورعينا غنم الأهل معا
هذه الربوة كانت ملعبا ... لشبابينا وكانت مرتعا
كم بنينا من حصاها أربعا ... وانثينا فمحونا الأربعا

وخططنا في نقا الرّمل فلم تحفظ الريح ولا الرمل وعى
لم تزل ليلى بعيني طفلة لم تزد عن أمس إلاّ اصبعا
منا لأحجارك صمّا كلما هاج بي الشوق أبت أن تسمعا
كلّما جئتك راجعت الصبا فأبت أيامه أن ترجعا
قد يهون العمر إلا ساعة وتهون الأرض إلا موضعا

ثم بكى-قيس بكاء شديداً ما له من مزيد فقلت تجلد واصبر فاني عزمت على ألّا أفارقك حتى نرى ما يكون المصير. قال ولم يزل قيس وزياد سائرين من وادٍ الى وادٍ ومن جبل الى جبل وهم يقتاتون من صيد البر وأعشابه وكلما وردوا مورد ماء ووجدوا حولها من الظباء يقف قيس على بعد منها وينظر إليها ثم يذكر ليلى ويصفها ويتغنى بأناشيده ويترنم بأشعاره. ولم يزالا سائرَيْن حتى وصلا قرب قرية من أرض الشام بها عرب رحّالة وقد اشتدّ التعب بقيس وزياد من مواصلة السير فنزلا وأناخا رواحلهما وضربا خباءهما في ناحية مرتفعة من أرض ذلك الوادي حيث نزل بهما مطر شديد سال منه ذلك الوادي. ودام المطر ثلاثة أيام لم يريا فيها شمس وذلك من كثرة الغيام وسقوط المياه. وفي اليوم الرابع ظهرت الشمس وصار الجو صحواً وخرج القوم المجاورون لنا يمشون في ذلك الوادي. فبينا أنا أنظر إليهم وإذا بقيس يبكي وينتحب فوعظته وكلمته طويلاً وهو لا يرد لي جوابا ولم يرفع رأسه ثم أنشد بصوت حزين لا أنساه أبداً وقال :

جرى السيل فاستبكاني السيل إذ جرى وفاضت له من مقلتي غروب
وما ذاك إلا حين أيقنت أنه يكون بواد أنت فيه قريب
يكون أجاجاً دونكم فإذا انتهى إليكم تلقى طيبكم فيطيب
أظل غريب الدار في أرض عامر ألا كلّ مهجور هناك غريب

وأن الكثيب الفرد من أيمن الحما إليّ وإن لم آته لحبيب
فلا خير في الدنيا إذا أنت لم تزر حبيباً ولم يطرب إليك حبيب

قال وفي اليوم الخامس شددنا رحالنا وذهبنا من تلك القرية قاصدين وادي تيماء ولم نزل سائرين في الصحاري والتلال وتحملنا المشقات واقتحمنا الموارد حتى وصلنا إلى وادي الصخرة وكان قيس قد أنهكه التعب وجف جلده وأصبح نحيلاً . فعندما وصلنا ذلك الوادي أنخنا رحالنا وضربنا خبائنا وكان هناك عرب من عرب الشمال فسألت القوم عن طبيب له فدللت عليه فأخذته إلى الطبيب ليطبّبه وكان هذا الطبيب مشهوراً في تلك القرية يعالج كل مسحور ومجنون فحدثته بقصته وما هو فيه من العشق والهيام حتى أصبح على ما ترى. فأخذ الطبيب يسقيه دواء بعد دواء وكان يلاطفه في الكلام ويكرهه في الحب والعشق والهيام فلما كثر على قيس المقال أنشد قائلاً :

ألا يا طبيب الجن ويحك داوني فإن طبيب الإنس أعياه دائيا
أتيت طبيب الإنس شيخاً مداوياً بمكة يعطي في الدواء الأمانيا
فقلت له يا عم حكمك فاحتكم إذا ما كشفت اليوم يا عم ما بيا
فخاض شرابا بارداً في زجاجة وطرح فيه سلوة وسقانيا
فقلت ومرض الناس يسعون حوله أعوذ برب الناس منك مداويا
فقلت شفاء الحب أن تلصق الحشا بأحشاء من تهوى إذا كنت خاليا

قال ولم يجد الطبيب نفعاً وظللنا طيلة ذلك اليوم مقيمين لأخذ الراحة فلما كان الليل أوى إلى مضجعه وجعل ينتحب ويبكي ويتململ فيه تململ السليم وأنا أنظر إليه فلم أر إلا أنه وثب قائماً حتى أتى باب الخباء وجعل يتمرغ في التراب ويقول :



الطبيب يسقى الدواء لقيس وزياد ينظر إليه وهم بوادي تيماء

بت والهم يا ليلى ضجيعي وجرت مذ نأيت عني دموعي
وتنفست إذ ذكرتك حتى زالت اليوم عن فؤادي ضلوعي
أتناساك كي يزيغ فؤادي ثم يشتد عند ذاك ولوعي
يا ليلى - فديتك نفسي وأهلي هل لدهر لنا من رجوع

قال زياد فلما سمعته خرجت إليه وقلت له يا قيس كفاك ما أنت فيه وهيا بنا إلى داخل الخباء فإن الوقت ليل والناس نيام فلا تزعج القوم بأشعارك فقال إليك عني يا زياد. فبينما نحن كذلك وإذا بحمامة تنوح فوق دوحة وكانت أمامه فصغى إليها قيس ولم يزل صاغياً يسمع نواحها حتى سكتت فبكى وتأوه ثم تنفس الصعداء وأنشد قائلاً :

أإن هتفت يوماً بوادي حمامة بكيت ولم يعذرك بالجهل عاذر
دعت ساق حر بعدما غلت الضحى فهاج لك الأحزان إن ناح طائر
تغنى وليل الصبح في مرجحه كثاف المعالي تحتها المهد حائر
كأن لم يكن بالغيل أو بطن أيكة أو الجزع من قول الأشاعة حاضر
يقول زياد إذ رأى الحي هجّروا أرى الحي قد ناموا فهل أنت سائر
وإني وإن غال التقدم حاجتي ملم على أوطان ليلى فناظر

ثم صاح بأعلى صوته قائلاً ليلى وسقط مغشياً عليه. وقد سمع أهل الحي صوته فأتوا إلينا فوجدوني أقلب فيه فسألوني ما الذي أصابه فقلت لهم هذا ما ترونه من حاله. فقال أحدهم لي دعنا عنده وأطلب له الطبيب. قال زياد فتركتهم معه يحدثونه ويلاطفونه وذهبت في ذلك الليل أطلب له الطبيب فأتيت به ودخلت به عليه وكان القوم حوله فجعل الطبيب يحادثه ويسليه مما هو فيه وأطال عليه السؤال ثم سأله عن سبب علته فأجابه قيس وأنشد قائلاً :

عيد قيس من حب ليلى وليلى داء قيس والحب داء شديد
وإذا عادني العوائد يوماً قالت العين لا أرى من أريد
ليت ليلى تعود يوماً ثم أقضي إنها لا تعود فيمن يعود
ويح قيس لقد تضمن منها داء خبل فالقلب منه عميد

فقال له الطبيب ويحك يا قيس منذ كم هذه العلة ومنذ كم وجدت بهذه المرأة ما وجدت فأنشد قائلاً :

تعلق روحي روحها قبل خلقنا ومن بعدما كنا نطافاً وفي المهدِ
فزاد كما زدنا فأصبح ناميا وليس إذا متنا بمنصرم العهدِ
ولكنه باق على كل حادث وزائرنا في ظلمة القبر واللحدِ

قال فجعل الطبيب يحادثه ويقول له يا قيس ان مما يسليك عنها أن تتذكر ما فيها من المساوئ والمعايب وما تعافه النفس من أقذار بني آدم فإن النفس حينئذ تنبو وتسلو ويخف ما بها ولربما إذا فعلت ذلك تسلوها وتتعافى مما أنت فيه فأنشد قائلاً :

إذا عبتها شبهتها البدر طالعاً وحسبك من عيب بها شبه البدر
لقد فضلت ليلى عَلَى الناس مثل ما على ألف شهر فضلت ليلة القدر

قال وما زال الطبيب يحادثه مرة ويلومه مرة ويلاطفه أخرى وقد عجز الطبيب عن دوائه فقال له يا قيس الله في نفسك فإنك ميت إن دمت على هذا الحال. فأجاب قيس الطبيب متمثلاً بقول عروة العذري فأنشد قائلاً :

وفي عروة العذري إن مت أسوة وعمرو بن عجلان الذي قتلت هند
وبي مثل ما ماتا به غير أنني إلى أجل لم يأتني وقته بعد

هل الحب إلا عبرةٌ بعد زفرة وحر على الأحشاء ليس له برد
وفـيض دمـوع تستهل إذا بـدا لنا علم من أرضكم لم يكن يبدو

ثم ان الطبيب لما أعياه أمر قيس وما هو فيه قام وخرج ولم يجد نفعاً وخرج القوم أيضاً. وقمت أحادثه وأسليه وأعده بالذهاب إلى ليلى كيفما كان الأمر وقد تعب من البكاء والنحيب على ليلى. وما زلت به كذلك حتى أخذته سنة من النوم فنام نوماً طويلاً إلى الصباح. فلما أصبحنا قام وخرج من الخباء ليستنشق الهواء. قال زياد فبينما تركت قيساً واقف عند باب الخباء وخرجت إليه وأنا أحمل قوسي وقلت له يا قيس لا تبرح من هنا حتى أرجع إليك فإني ذاهب لأتصيد شيئاً نأكله وإننا في المساء سنرحل إلى ما وعدتك فلا تخالف ما قلته لك ولا تبرح مكانك. فقال لي سر وإني منتظرك ثم ذهبت ولم أدر ما حل به بعد ذهابي.

قال الراوي بعدما ذهب زياد رأى قيساً صياداً ينصب شراكاً بين ثقل الأشجار في الأجمّة ليصيد الغزلان ثم ترك الفخ وابتعد يرقبه فجاءت غزالة من غزلان المسك واستطعمت جص الشرك فوقعت في حبائله فصدحت همساً عن صوت رشيق. فسمعها قيس فأسرع إليها وقطع الشرك بخنجره واحتضنها ثم أمعن في عينيها المكحولتين فوجدهما على أتم الشبه من عين ليلى وخفة حركتها كرشاقة ليلى واتزان عنقها كجيد ليلى. فقبل الغزالة بين جبينها وعصر عليها بشدة حتى كاد يغمى عليه ثم أطلقها فانطلقت كالسهم وغاصت في الأشجار. وكان الصياد يصيح على قيس ولكن صيحاته لم تصل إلى أذن قيس لأنه كان في غشيته فقذفه بقطعة من الحجر ولما وصل إليه ضربه بهراوته وقال له قطعك الله كما قطعت رزقي ورزق أولادي. فقال له قيس وهو يتململ من ألم الضرب كفاني يا هذا أما ضربتني فإن عيناها تشبه عيني ليلى ثم اتجه في السير وهو

يقول ليلى. ليلى. ليلى. عيناها كعيني ليلى وقوامها كاعتدال ليلى ثم أنشد قائلاً :

أيا شبه ليلى لا تراعي فإنني لك اليوم من دون الوحوش صديق
ويا شبه ليلى لو توقفت ساعة عليها سحاب هاطل وبروق
ويا شبه ليلى لو توقفت ساعة لعل فؤادي من جواه يفيق
أقول وقد أطلقتها من وثاقها فأنت لليلى إن شكرت طليق
فعيناك عيناها وجيدك جيدها سوى أن عظم الساق منك دقيق
تكاد بلاد الله يا أم مالك بما رحبت يوماً عليّ تضيق
تتوق إليها النفس ثم أردها حياء ومثلي بالحياء خليق
ولو تعلمين الغيب أيقنت أنني حبيب وأني للحبيب مشوق
أروم سلّو النفس عنك وما لها إلى أحد إلا إليك طريق

قال فاستشاط الصياد غضباً حينما سمع مقالته وتغيرت أحواله واعتراه الانذهال وقال يا هذا ما هذه الفعال التي لم يسبق إليها أحد من الجهال فقد مَنَّ الله علينا بما كنا نتمناه فأحرمتني إياه. فقال له قيس وقد اشتد به جواه وعظم مصابه وبلاه لا تلمني فإن عينيها تشبه عيني ليلى. فظن الصياد أن به جنة. فتركه وهو يتأسف على صيده، ولم يزل قيس يترنم باسم ليلى ويزن نغمته على أوقاع خرير الماء في ذلك الوادي وخشخشة الأنهار. وكانت الأشجار تصفق بورقها في وقت الأصيل والطير هائم بين الغصن والجو وقيس يصيح ليلى. ليلى. وسار يجول في تلك القفار وإذا به يرى ظبية أخرى فأسرع نحوها وقبض عليها ومسح التراب عن وجهها وقرنيها وصار يقبلها ثم أطلقها وأشار يقول :

اذهبي في حراسة الرحمن أنت مني في ذمة وأمان
لا تخافي ولا تخافي بسوء ما تغنى الحمام في الأغصان

ثم اتجه مع سير النهر في ذلك الوادي فارتطم بساق شجرة مبتورة فانقلب على الوحل الناتج من طغيان الأنهار فتلطخت ثيابه فجثا على ركبتيه باكياً حزيناً ينبش بكلتا يديه قطع الحشائش من ألم تلك الشجرة المبتورة التي رضّت عظامه وشجت وجهه ثم أخذ يقلب عينه نحو السماء ويقول رباه هل من رحيم هل من حنون وقد أظلمت الدنيا أمامه فانقلب نائماً على ظهره في ذلك الوحل.

قال وكان زياد ابن عمه لا يدري ما حل بقيس لأنه خرج من الخباء مبكراً لكي يصطاد شيئاً يقتاتان به. فلما رجع إلى الخباء لم يجد قيساً فرمى ما كان معه من الصيد وخرج كالمجنون ينظر إلى قيس فما زال سائراً بين تلك الأشجار يلتفت يميناً وشمالاً إذ رأى على بعد شبحاً ملقى على الأرض بين الوحل فقصده.فإذا هو قيس فقعد إلى جانبه وأفاقه وأجلسه وصار يمسح عن وجهه التراب ويقول له كفى ما حل بك إلى متى وأنت بهذه الحالة فشد حيلك فإننا ذاهبان إلى حي ليلى فما الذي أتى بك إلى هذا المكان.فقص عليه قيس قصته.قال فقام زياد وقام معه قيس متوكاً عليه. فبينما قيس وزياد راجعان نحو خبائهما إذ مر بهما رجلان من التجار ذاهبان في طريقهما. فاستوقفهما قيس مستخبراً قدومهما فقالا من وادي تيماء. فانتشأ واستحلفهما بالله هل رأيتم حي ليلى أو هل سمعتم عن خبرها. قال فنظر إليه الرجلان نظرة تعرف فقالا له قيس.قال نعم فتركاه مسرعين في البر فاستوقفهما مرة ثانية وقاسمهما بالله ليحدثانه عنها. فقالا ما كنا نريد ذلك ولكن ما دمت استحلفتنا يا قيس ان ليلى بوادي تيماء أتى بها زوجها ووالدها وهي تعاني من المرض أشده وقد استدعوا لها الأطباء لمداواتها فلم يعرف لها دواء ثم تركاه.فلم يشعر زياد إلا وقيس قد ارتمى على مرقي بطنه يمزقها ويقول

ليتك يا قيس أنت المريض وأنت يا ليلى المعافة ثم أنشد قائلاً :

أنت يا ليلى بتيماء مريضة فيا ليتني كنت الطبيب المداويا
لقد عيل صبري والغرام يقودني اليها وكثرة اشتياقي وآماليا
ولي زفرة تعلو إذا ما ذكرتها أحس على قلبي لهيب المكاويا

قال ثم ذهب قيس مع زياد إلى الخباء ولما وصل جلس وهدأ ما به ثم أخذته سنة من النوم لشدة ما أصابه من صداع ألمَّ برأسه وكان يرى في نومه ليلى وهي تحتضنه وتقبله وتعاتبه على ما فعل بنفسه في ذلك اليوم. فانتبه من نومه وكان زياد قد هيأ له الطعام وجلس يحادثه ولم يزل به وقيس يردد اسم ليلى وقد امتلأت أذناه بمرض ليلى من كلام هؤلاء التجار. فأخذته الغشية مرة ثانية فأفاقه زياد بعد تعب شديد فقال قيس بين أنهر من الدمع بصوت يلعلع في أنحاء ذلك الوادي قائلاً :

يقولون ليلى بتيماء مريضة فما لك لا تضنى وأنت صديق
فان تك ليلى بتيماء مريضة فإنّي في بحر الغرام غريق
أهيم بأقطار البلاد وعرضها وما لي إلى ليلى الغداة طريق
كأن فؤادي فيه نار تقادحت وفيه لهيب ساطع وبروق
إذا ذكرتها النفس ماتت صبابة لها زفرة قتّالة وشهيق
سبتني شمس يخجل الشمس نورها ويكسف ضوء البدر وهو شروق
غرابية الفرعين بدرية النسا ومنظرها بادي الجمال أنيق
وقد صرت مجنوناً من الحب هائماً كأنّي عان في القيود وثيق
برى حبها جسمي وقلبي ومهجتي فلم يبق إلا أعظم وعروق
فلا تعدلوا بل إن هلكت ترحموا عليّ ففقد النفس ليس يعوق
وخطوا على قبري إذا مت أسطراً قتيل لحاظ مات وهو عشيق
إلى الله أشكو ما ألاقي من الهوى بليلى ففي قلبي جوى وحريق

قال لما سمع أهل ذلك الحي صياحه ومقاله أتوا إليه وفرشوا له حملاً من الصوف وأجلسوه عليه وسقوه حليباً وباسطوه وواعدوه بليلى خيراً ثم صمت قيس وصمتوا حزناً عليه. فبينما هم في وجلة من الألم إلاّ وقد قام من بينهم ومرق كالسهم متبطناً الصحراء وهو ينادي بأعلى صوته ليلى. ليلى. لبيك ها أنذا واقف بخبائك رشي من الماء عليّ لتطفئي لهيب النار المتأججة في قلبي. ليلى أنت الشفوقة عن غريب الديار وطريد هواك. قال فقام زياد ونخبة من القوم يعدون خلفه إلى أن لحقوه وامسكوا به وأخذوا يهونون عليه ويلاطفوه حتى رجعوا به إلى الخيام. فقال له زياد إننا في الغد سنرحل إلى وادي تيماء. فقال قيس لزياد أحقاً ما تقول. قال زياد لقد أخذت على نفسي عهداً بذلك فهدّئ بالك وأيقن بملاقاة ليلى. وبات في تلك الليلة قلقاً يناشد فيها طلوع الصباح. هذا ما كان من أمر قيس.

وأما ما كان من أمر ليلى فإنها لما وصلت إلى وادي تيماء وقد أعياها المرض واشتد بها الألم أحضروا لها أطباء ذلك الوادي فمنهم من عالجها ومنهم من رقاها وقد عجز الكل عن مداواتها. ولم يكن بها مرض وقد كان مرضها هو فراقها عن قيس فأفضت إلى جاريتها مرجانة وقالت لها يا مرجانة إن مرضي ودوائي هو الهوى وعلة الحب وسقم الغرام وإن طبيبي الوحيد هو قيس. قال فقامت الجارية تعدو إلى القادمين من نجد ونواحي الشام تتنبأ منهم أخبار قيس. فبينما هي كذلك وإذا بقوم من الرحالة قادمين من ضواحي الشام فتقدمت إليهم مرجانة وسألتهم عن قيس وأخباره فأخبروها أنه بوادي الصخرة وأنه في حالة بؤس وأنه عاشق لابنة عمه ليلى وقد رأوا بأعينهم ما هو فيه من نكبات الغرام والعشق والهيام وقالوا لها لو وضع هذا المسكين دمعه الغزير المنسكب

من عينيه في جفنة من الأديم لملأها. فهرولت الجارية إلى سيدتها وأخبرتها الخبر. ووصفت لها ما قاله الرحالة من كثرة بكائه وجنونه قال فبينما مرجانة تحدثها ذلك إذ سمعت ليلى صوت ضجيج في الخارج فقامت تتوكأ على مرجانة لتنظر ذلك الضجيج فرأت أناساً مارين في طريقهم فصاحت ليلى بأحدهم وقالت يا هذا أقاسمك بالله إلى أين أنتم سائرين فقال الرجل إلى الشام ومنها إلى ديار بني عامر فتنهدت ليلى وأنشدت قائلة :

يا أيها الراكب المزجى مطيته عرج لتنبىء عني بعض ما أجد
فما أرى الناس من وجد تضمنهم إلا ووجدي بقيس فوق ما أجد
أهوى رضاه وأني في مودته دوماً إلى آخر الأيام أجتهد

قال فأشفق عليها الرجل وقال لها حياك الله يا حرة العرب هل من طلب. قالت إن كنت من أصحاب المروءة فاعمل لي هذا المعروف وهو أنك متى وصلت إلى وادي الصخرة فاسأل عن قيس بن الملوح وأقرأه مني السلام وقل له إن ابنة عمك ليلى العامرية قد أضناها السقام من شدة وجدها بك وسارت ميلاً بين النساء ثم كتبت له رقعة ضمّنتها هذه الأبيات :

وأنت الذي أخلفتني ما وعدتني وأشمت بي من كان فيك يلوم
وأبرزتني للناس ثم تركتني لهم غرضاً أرمى وأنت سليم
فلو أن قولاً يكلم الجسم قد بدا بجسمي من قول الوشاة كلوم

قال فسار الرجل في طريقه قاصداً بلاده فبينما هو يسير وقد أقبل على وادي الصخرة وكان المساء قد دخل فبات تلك الليلة في ذلك الوادي. وقد أضافه أهل الحي كما هي عادة العرب فسأل عن قيس هل

هو موجود في هذا الوادي فقال له رجل من القوم إنه في ذلك الخباء قال فقمت فذهبت إليه ودخلت فسلمت وقد وجدته مع ابن عمه زياد ابن كعب بن مزاحم. وقلت له يا قيس إن لك معي رقعة من ليلى وهي قريبة منك في وادي تيماء. قال فرفع رأسه وتنهد وتناول تلك الرقعة وقرأها قال فلما قرأ قيس تلك الرقعة أنّ أنيناً وغشى عليه فلما أفاق أنشد قائلاً :

غدرت و لم أغدر وخانت و لم أخن — وفي بعض هذا للمحب عزاء
جزيتك ضعف الود ثم صرمتني — فحبك من قلبي إليك أداء

ثم خرج يتجول في نواحي ذلك الحي إذ مر عليه سرب من طير القطا فلما رآه أنشد قائلاً :

شكوت إلى سرب القطا إذ مررن بي — فقلت ومثلي بالبكاء جدير
أسرب القطا هل من يعير جناحه — لعلي إلى من قد هويت أطير
وأي قطاة لم تعرني جناحها — فعاشت بضر والجناح كسير
والا فمن عني يؤدي رسالتي — فأشكره إن المحب شكور
إلى الله أشكو صبوتي بعد كربتي — ونيران شوقي ما بهن فتور
فان لم أمت هماً وغماً وكربة — يعاودني بعد الزفير زفير
إذا جلسوا في مجلس هدروا دمي — فكيف تراها عند ذاك تجير
ودون دمي هز الرماح كأنها — توقد جمر ثاقب وسعير
أرى النوم يأتي دون ليلى كأنما — أتى دون ليلى حجة وشهور
ففكي أسيراً مستهاماً فانه — إلى ذاك منكم فارحميه فقير
وحالت جبال البعد بيني وبينها — وهيهات مقصوص الجناح يطير
أظل بحزن إن تغنت حمامة — من الورق مطراب العشي بكور

بكت حين در الشوق لي وترنمت وأرقني نوح لها وهدير
ألا قل لليلى هل تراها مجيرتي فإني لها فيما لدي مجير

ثم إن قيساً صرخ صرخة وخر مغشياً عليه وكان زياد بجانبه فما زال يلاطفه ويشجعه ويقول له نحن قريبون من ليلى حتى راق وأفاق وقال يا زياد لقد أوعدتني بالرحيل فهل لك أن تسير معي إلى حي ليلى أو دعني أسير إليها. قال زياد كيف وقد عاهدت نفسي أن لا أتركك حتى تراها وتراك. فلما أصبح الصباح تهيأنا للسفر ثم ارتحلنا من ذلك الوادي قاصدين وادي تيماء. فما زلنا سائرين بين تلك الوديان والرمال والصحارى والتلال نمرح نهارنا ونسير ليلنا مجدين في سيرنا ولم يمض علينا غير أيام حتى وصلنا وادي تيماء. فرأينا أبيات أهل ليلى فنزلنا قرب بيوتهم ونصبنا خبائنا وقد أنهكنا التعب من شدة السير. وكان الليل قد دخل وأسدل ستاره وبدا البدر في كبد السماء مرسلاً نوره الصافي على ذلك الوادي وقد انتصف الليل فتنهد قيس وأنشد قائلاً :

أرى كل معشوقين غيري وغيرها يلذان في الدنيا ويغتبطان
وأمشي وتمشي في البلاد كأننا أسيران للأعداء مرتهنان
أصلي فأبكي في الصلاة لذكرها لي الويل مما يكتب الملكان
ضمنت لها أن لا أهيم بغيرها وقد وثقت مني بغير ضمان
ألا يا عباد الله قوموا لتسمعوا خصومة معشوقين يختصمان
وفي كل عام يستجدان مرة عتاباً وهجراً ثم يصطلحان
يعيشان في الدنيا غريبان أينما أقاما وفي الأعوام يلتقيان

قال فقام زياد وقال له كفى يا قيس فلا تفضحنا فإن الليل قد سرى وانتصف ونحن غريبان في هذا الوادي وها هي بيوت ليلى أمامنا فلا يسمعنا أهل الحي فينقضوا علينا ويذيقونا شر العذاب ولا معين

لنا. أصمت ففي الصمت خير ولعل يكون فيه فرج لك باجتماعك بليلى قال فصاح قيس مرة ثانية وأنشد قائلاً :

أنّني اليوم عادني أحزاني وتذكرت ما مضى في زماني
وتذكرت ظبيــة أمّ ريم صدع القلب ذكرها فشجاني
لا تلمني زياد حسبي الذي إن بي يا زياد ما قد كفاني
ان بي داخلاً من الحب قد أبلى عظامي مكنونة وبراني
ان دهراً يلف شملي بليلى لزمان يهم بالإحسان
وأرجّي أن يجمع الدهر شملاً بك سقياً لذالكم من زمان
ليتني أشتري لنفسي منها مثل ودي بساعدي وبناني
خلجت عيني اليمين بخير تلك عين مأمونة الخلجانِ
سقياً لدارهم التي كانوا بها إذ لا يزال رسولهم يلقاني
ولقد خشيت بأن ألج بهجركم إنّ الحبيب مذهّل الاحسانِ
بل جنّ قلبي إن بدت لي دارها جزعاً وكدت أبوح بالكتمانِ

قال واحتار زياد في أمره فقام ولاطفه وهدأ روعه وأخذه على صدره وضمه إليه ووعده بكل ما يرضيه في هذا الأمر. قال فصمت قيس وأخذته سنة من النوم وذلك مما أصابه من القلق والضجر وكثرة البكاء والسهر ومن التصادف العجيب كان وصول قيس في الليلة التي ارتحل فيها زوج ليلى ووالدها إلى مكة في أمر طرقهم وكانت ليلى لم تعلم بوصول قيس. ولما أصبح الصباح وطلعت الشمس خرجت ليلى من خبائها ووقفت تنظر يميناً وشمالاً فرأت خباء منصوباً في ناحية قريبة من بيوتهم فارتجف قلبها وتذكرت قيساً فأنشدت قائلة :

وا رحمة للعاشقين تحملوا سر المحبة والهوى فضّاح
بالسر إن باحوا تباح دمائهم وكذا دماء العاشقين تباح



ليلى مغشى عليها ومرجانة تحملها بين أحضانها إلى داخل الخباء بوادي تيماء

ثم خرت مغشياً عليها عند باب خبائها وكانت جاريتها واقفة بجانبها فحملتها إلى داخل الخباء وأسندتها ورشت عليها الماء وجلست تلاطفها وتحادثها حتى فاقت من غشيتها.

وكانت الجارية تنظر إلى ليلى بكل عطف وحنان ومحبة لها كاتمة لأسرارها مساعدة لها في أمورها وكانت تكره أبا ليلى وزوج ليلى. قال ولما فاقت ليلى من غشيتها قالت لمرجانة إن لي إليك حاجة فقالت الجارية وما هي. قالت إني أريد خبر هذا الخباء ومن هم من العرب لعل فيهم من يعرف شيئاً عن أخبار قيس قال فقامت الجارية ذاهبة نحو ذاك الخباء فما إن وصلت إليه حتى سمعت صوتاً نحيلاً من داخل الخباء ينشد هذه الأبيات :

نظرت ليلى والسواك قد ارتوى	بريق عليه الطرف مني باك
تردده من فوق در منضد	سناه لأنوار البروق يحاكي
فقلت وقلبي قد تفطر غيرة	أيا ليتني قد كنت عود أراك
فقالت أما ترضى السواك أجبتها	وحقك ما لي حاجة بسواكي

ثم خر مغشياً عليه فصاح به زياد وقال له إلى متى يا قيس وأنت على هذا الحال. قال وكانت مرجانة واقفة خارج الخباء تسمع كل ما دار من قيس وزياد. فما أن سمعت ذلك حتى استبشرت وأقبلت نحو الخباء وطرقت الباب فخرج زياد ينظر من الطارق فرأى الجارية واقفة فقال زياد ماذا تريدين قالت يا أخ العرب من الذي كان ينشد هذه الأبيات فقال زياد إنه قيس بن الملوح الذي أضناه عشق ليلى العامرية قال ثم صمتت مرجانة وصمت زياد حزناً عليه. فبينما هما كذلك إذ سمعوا قيس وهو ينادي بأعلى صوته ليلى. ليلى. لقد أبعدت الرحمة من

سجاياك ليلى ارحمي طريد هواك. ارحمي من قد أنهكه التعب والمرض وقد عجز الأطباء عن علاجه قال فهرولت الجارية مرجانة إلى سيدتها تبشرها بقدوم قيس وانه موجود في هذا الخباء مع ابن عم له يقال له زياد. فما إن سمعت ليلى بما قالته مرجانة حتى ارتمت في أحضانها مغشياً عليها من الفرح. فلما أفاقت قالت ليلى يا مرجانة ارجعي إليه ولاطفيه بالكلام وادعيه وقولي له إنك بجوار ليلى التي أنحلها الحب والغرام وعجز عن دوائها الأطباء وإنها لتعاني من المرض ما هو أشده وأن يكون مجيئه ليلاً لئلا يراه أحد من القوم. قال فذهبت مرجانة فرحة مسرعة بهذا اللقاء العجيب فلما وصلت دار قيس دخلت بغير أن تطرق عليهم الخباء ففزع زياد فقالت لا تفزع فقال لها ماذا تريدين وما هو سبب عودتك إلينا فقالت يا زياد دعني أدخل على قيس فإني رسولة من ليلى إلى قيس لأدعيه لزيارتها. قال فما إن سمع زياد ذلك القول حتى تهلل وجهه فرحاً فدخل ودخلت معه مرجانة إلى داخل الخباء فنظرت إلى قيس وهو يلعب بالرمل وقد غمره ما هو فيه وكانت تخاطبه وهو لا يرد عليها جواباً. فقالت يا أخي يا قيس أما تعرفني أما لكلامي جواب فقال لها والله يا أخت العرب ما علمت أنك تكلميني فاعذريني فإني كما ترين مذهوب العقل مشترك اللُّب وبكي ثم أنشد يقول:

وشغلت عن فهـم الحديث سوى ما كان منك فإنه شغلي
واديم لحظ محدثي ليرى أن قد فهمت وعندكم عقلي

ثم رفع قيس رأسه ونظر إليها نظرة تعرف فصرخ صرخة قوية وقال مرجانة قالت نعم فقال لها أين تركت ليلى. فقالت لقد تركتها في خبائها وحيدة ليس لها أنيس إلّا ذكراك. وكانت مرجانة تحدثه بحال ليلى وما أصابهامن أجله وكيف خاطرت بنفسها محبة فيه وأنها لا تزال تعاني

من المرض ولوعة الغرام حتى أصبحت جلداً وعظم.وما زال قيس يحادث مرجانة حتى أقبل المساء وظهر الليل فعند ذلك قالت له مرجانة ان ليلى تنتظرك عندما يمضي من الليل ربعه الأول حيث لا يراك أحد من القوم لأن زوج ليلى وأباها سافرا إلى مكة في أمر طرقهما. قال فعند ذلك ودعته مرجانة ورجعت على الأثر خوفاً من أن يراها أحد من القوم قال وبعدما ذهبت مرجانة أنشد قيساً قائلاً :

لقد أرسلت ليلى إليّ رسولها بأن آتها سراً إذا الليل أظلما
فجئت على خوف وكنت معوذا أحاذر إيقاظ غداة ونوّما
فبت وباتت لم نهمّ بريبة ولم نبتغ يا صاحِ فعلاً محرما
وكيف أعز القلب عنها تجلدا وقد أورثت في القلب داء مكتماً
فلو أنها تدعو الحمام أجابها ولو كلّمت ميّتاً إذاً لتكلما
منعمة تسبي الحليم بوجهها تزين منها عفة وتكرما

قال ولما مضى من الليل ربعه قام قيس وخرج من خبائه مودعاً زياد قاصداً خباء حبيبته ليلى وهو بين مصدق ومكذب. ولما وصل إلى الخباء وجد مرجانة واقفة له تنتظر قدومه فادخلته إلى الخباء وإذا بليلى قد أقبلت فتقدمت إليه وسلمت عليه ثم قبّلته في عارضه وبين عينيه وصار هو يقبّلها أيضاً. وزال عنهما الهم والغم والضجر. فنهض في الحال وجلس وقد ردت روح كلا منهما إليه بعد أن كانا على آخر نفس لأن العاشق لا يبرأ إلا بنظر الحبيب فإذا رآه ذهب ما بقلبه من اللهب .ثم قالت له ليلى لقد بلغني ما أنت فيه من الهم والحزن ولقد ضعف جسمك وتغير لون وجهك بعد ذلك الحسن والجمال وكان ذلك من أجلي فلا كنت أنا ولا كان أهلي وأنشدت قائلة :

إذا خدرت رجلي ذكرتك صادقا وصرّحت إذ أدعوك بأسمك لا أكني

وأنى لتغشاني لذكرك روعة يخف لها ما بين كعبي إلى قرني
وأفرح بالأمر الذي لا أبينه .يقيناً سوى أن قد رجمت به ظني
لك الود مني ما حييت مع الهوى هنيئاً، بلا منّ وقلّ لكم مني
أبيت فلم أسمع به قول كاشح قديماً فأنّب ما بدا لك أو دعني

قال فطرب قيس لما سمع ما قالته ليلى فقال لها وحق معزتك يا ليلى إنني منذ فارقتك للآن لم تغمض لي عين بل كنت أهيم مع الوحوش في البراري والقفار أنشد الأشعار وأقتفي الآثار وألقي نفسي في المهالك والأخطار وأصل الليل بالنهاز ولا يقر لي قرار حتى نفر مني الأهل وانقلبت عني القلوب.وإني كلما ذكرتك خفق فؤادي وغاب رشدي وتبلبل خاطري إلى أن أضمحل جسمي من الهزال كما ترين لأن ملك الهوى عنيد وقيده أشد من سلاسل الحديد.والآن قد انجلت عن قلبي الكروب وانشرح صدري برؤيتك بعد أن كان متعوباً ولا ندري بعد ذلك ما يكون ثم غلب عليه جواه وتذكر ما قاساه فتأوه وتنهد وأنشد قائلاً :

فوالله لا أدري علام هجرتني وأي أمور فيك يا ليل أركب
أقطع حبل الوصل فالموت دونه وأشرب كأساً علقماً ليس يشرب
فلو كان لي قلبان عشت بواحد وأبقيت قلباً في هواك يعذب
رمتني يد الأيام عن قوس محنة لا العيش يصفو لي ولا الموت يقرب
كعصفورة في يد طفل يهينها تقاسي عذاب الموت والطفل يلعب
فلا الطفل ذو عقل يرق لحالها ولا الطير مطلوق الجناح فيذهب

قال فلما انتهى قيس من قوله تساقط دمعه على وجناته فقالت له ليلى لا أراك الله سوءاً ولا ضيراً ثم فاضت عيناها بالدموع وتنفست من فؤاد موجوع وقالت :

فلو أنّ ما ألقى وما بي من الهوى بأرعن ركناه صفا وحديد
تقطع من وجد وذاب حديده وأمسى تراه العين وهو عميد
ثلاثون يوماً كل يوم وليلة أموت وأحيا إنّ ذا لشديد

قال ثم إنها حدثته بحالها من يوم أن سافرت من مكة إلى أن اجتمعت به في هذا الوادي وما زالا يتحدثان ويلتذ كل منهما بالنظر إلى صاحبه حتى مضى وقت السحر وأذن الليل بالرحيل ونادى منادي الصباح ولاح ضوء النهار فودعها قيس وخرج من عندها خوفاً من أن يراه أحد من قومها. قال وقالت له عند خروجه من عندها سر إليّ يا قيس في كل ليلة ما دام القوم سفراً. فكان يختلف إليها كل ليلة ودام على ذلك شهراً كاملاً وهم فرحَيْن مسرورَيْن باجتماعهما ولم يهتما بما خبئ لهما. فبينما هما على ذلك الحال إذا بلغهما قدوم القوم وكانت تلك الليلة هي آخر اجتماع لهما فودعها وودعته فخرج قيس هائماً حزيناً فأنشد قوله :

تمتع بليلى إنما أنت هامة من الهام يدنو كل يوم حمامها
تمتع إلى أن يرجع الركب انهم متى يرجعوا يحرم عليك كلامها

ثم رجع قيس إلى خبائه بعد أن ودع ليلى وكان ذلك قبل منتصف الليل ففزع زياد عندما رآه داخلاً عليه ورأى على وجهه علامة اليأس فقال له ما بالك يا قيس قد رجعت مبكراً وليست عادتك هل حدث شيء .فقال له لقد ودعت ليلى وأظن يا زياد أني لن أراها بعد اليوم حيث قلبي يحدثني بذلك فقال له زياد كف عنك الهواجس وأخبرني عن الذي حصل فقال قيس إنه لم يحدث أي شيء ولكنّ القوم قد قدموا من مكة. ثم ربض قيس في مكانه طول الليل وكان زياد يحدثه ويسليه. فبينما هما كذلك وإذا بمرجانة قد أقبلت وسمعت بكاء قيس وأنينه

فدخلت عليهما ففزع زياد منها وقال لها ما الذي أتى بك يا مرجانة وكان قيس قد سمع صوتها وهي تتكلم مع زياد فقام مسرعاً لها وقال هل حدث شيء لليلى قالت لا إنما هي تسلم عليك وتطلب منك الرحيل في هذه الليلة قبل منتصف الليل إلى ديار نجد لكي تقدمها إلى الديار حيث أن القوم قد عزموا الرحيل في الصباح نحو ذلك. قال يا مرجانة سلمي لي على ليلى ومنازل ليلى وقبلي لي يديها نيابة عني وقولي لها إن قيس طوع أمرك. قال فودعتهما مرجانة وعادت تحت ستار الليل إلى خباء سيدتها. فما كان من قيس وابن عمه زياد إلا أن قاما وشدا رحالهما متوجهَيْن إلى الديار في جوف ذلك الليل المظلم وكان قيس يلعلع في الصحراء بصوته بكاء وغناء باسم الحب ولم يزالا سائرَيْن حتى فاجأهما الصباح ببياضه وقد أنهكهما التعب. فظل طيلة ذلك اليوم وسمائه يبكي تارة ويترنم بشعره تارة أخرى. وفي مساء اليوم الثاني امتطى كل منهما راحلته وواصلا سيرهما حتى مغرب اليوم الثالث إلى موضع يقال له طعنة فلاق أهله في مفترقات الطريق يبحثون عليه فلاقوه وسلموا عليه وفرحوا به وجدّوا جميعهم في قطع الطريق وقيس معهم وهم مسرورين بلقاء قيس حتى أقبلوا على الديار وكان الشوق إلى ليلى في قلبه كلهيب النار. فلما وصل قيس ودخل إلى الخيام استقبلته أمه بفرح واشتياق وقدمت له الطعام فأبى وامتنع عن الأكل ولم تعرف عينه المنام بل قضى ليله ساهراً في البكاء الى أن بدت غرة الصباح وكان يخرج من الخيام يتنشد الأخبار لعله يجد من يخبره بقدوم ليلى. وقد رثى له أبوه وخاف عليه من انزعاج البال وقال له يا ولدي كف عن هذا الأمر واقبل النصيحة فقد هتكت نفسك وصرت مثلاً بين الورى وأحدوثة لكل من يسمع ويرى وكم نصحتك ولم تسمع وأدرتك ولم ترجع عما أنت فيه من هواجس الشيطان ووساوسه وكل ذلك من أجل ابنة عمك وهي دونك

في الثروة والجاه. فلما سمع من أبيه ذلك الكلام ازداد به العشق وهاجت عليه الأشواق من غصة الفراق وأنشد قائلاً :

وكم قائل لي أسل عنها بغيرها — وذلك من قول الوشاة عجيب
فقلت وعيني تسهّل دموعها — وقلبي بأكناف الحبيب يذوب
لئن كان لي قلب يذوب بذكرها — وقلب بأخرى انها لقلوب
فيا ليلى جودي بالوصال فإنني — بحبك رهن والفؤاد كئيب
فلا تتركي نفسي شعاعاً فإنها — من الوجد قد جادت عليك تذوب
وألقى من الوجد المبرّح سورة — لها من بين جلدي والعظام دبيب
وإني لأستحييك حتى كأنما — علي بظهر الغيب منك رقيب

قال فبكى قيس بكاء شديداً وبكى أهله معه رحمة له وطلبوا من الله أن يعافيه مما هو فيه. ورد عليه والده قائلاً يا قيس دع عنك ليلى لقد ضعف جسمك واعتراك الهزال وصرت ناحلاً كالخيال وليس بعد ذلك إلا إضاعة العمر والمصير إلى المهالك. فلما سمع كلام أبيه تنفس الصعداء وتنهد وأشار قائلاً :

لقد لامني في حب ليلى أقاربي — أبي وابن عمي وابن خالي وخاليا
يقولون ليلى أهل بيت عداوة — بنفسي ليلى من عدو وماليا
أرى أهل ليلى لا يريدونني لها — بشيء ولا أهلي يريدونها ليا
فليت نسيم الريح أدى تحيتي — إليها وما قد حل بي ودهانيا
فيا عجباً ممن يلوم على الهوى — فتى دنفاً أمسى من الصبر عاريا
وهيهات أسلوها من الوجد والهوى — وهذا قميصي واضح الحزن باليا
معذبتي لولاك ما كنت هائماً — أبيت سخين العين حيران باكيا
أبيت ضجيع الهم ما طعم الكرى — أنادي الهي قد لقيت الدواهيا
بساحرة العينين كالشمس وجهها — يضيء سناه في الدجى متساميا

خليلي مدا لي فراشي وارفعا وسادي لعل النوم يذهب ما بيا
وإن مت من داء الصبابة بلغا نتيجة ضوء الشمس مني سلاميا

قال فلما زاد بقيس الغرام وشدة انتظاره لوصول ليلى هام على وجهه وأوسع في القفار فبينما هو يدور إذا بأطيارٍ يجاوب بعضها بعض على غصون الأشجار فجلس يستمع لأصواتهن وقد فترت عيناه من الدموع فسبح في سنة من النوم قليلاً وفي أذنيه وقع من رنين التصفيق من أوراق الأشجار ورأى بعينيه الناعمتين هزات نسيم أغصان الشجر الصغير كأنها غيد ترقص دلالاً. ثم رأى الطير بين مغني ومغرد في الجو صافي والشمس مصفرّة اللون إيذاناً بالغروب والفضاء شاسع لم ير فيه سوى قطعاناً من الأرانب الجبلية تتوراى وتظهر بينْ كثبان الرمل فظن أن الدنيا كلها مسحورة فلم يزل ينعم من أحوال الطبيعة التي تحوطه كالمعتوه يرتل غناءَه في جوف الليل المظلم باسم ليلى وحب ليلى مستنداً إلى شجرة كبيرة ويتململ عليها كالملسوع وهو تائه عن الدنيا. وكانت في تلك الليلة قافلة من قوافل الرعيان قادمة من جهة العراق قاصدة ديار نجد فحطت بالقرب منه وسمعت صوتاً رقيقاً ينشد الأشعار ثم انقطع الصوت فقام أحدهم وتمشى نحو الصوت فوجد شخصاً مسنوداً إلى شجرة كبيرة وهو تائه في غيبوبته فوكزه فأفاق وتعرف عليه وكانت أخباره وأوصافه ملأت السهل والجبل ولا سيما بعد حادثة مكة في موسم الحج وطواف والده به على الحجاج ليدعون له فتحدث عنه كل إلى بلده عن جنون الحب في قيس وشاع أمر ليلى عند سادات العرب وانتشر إسمها في الحجاز والشام ونجد والعراق وتغنت الجواري بشعر قيس وإسم ليلى. فلما رأى ذلك الرجل شخص قيس عرفه ثم رأى دمعه ينساب من عينيه إلى مجرى خديه ورأى ترنيحه باسم ليلى

وعرفه تماماً فأخذه برفق وعاد به إلى القوم وأجلسه للراحة وأضرموا النار ووضعوا عليها قطع من لحم الغزلان والغنم ثم عملوا له قهوة من بن اليمن فأبى أن يتذوق شيئاً. فما زالوا به يضاحكوه ويحادثوه حتى استطعم أكلهم ولما قدموا له قطعة من لحم الغزلان قال حرام علي أن آكل لحم من هو شبيه بليلى ورشاقة ليلى وقدّ ليلى. ثم قام من فوق الطعام ونفر من بينهم مذهول العقل فانطلقوا وراءَه فلم يدركوه وغاب عنهم في ذلك الليل المظلم بين الرمال والأشجار ثم رجع القوم إلى أماكنهم متأسفين عليه. وما زال قيس يهيم في تلك القفار إلى أن اشتد به التعب فانطرح مسطوحاً على ظهره ينظر إلى تعاريج القمر في صفحة السماء فأخذه من ذلك المنظر شجون الحب والغرام فتذكر ليلى فأخذ يقوم ويقعد حتى شقشق الفجر ولاح ضوء النهار فانطلق هائماً وخاض في منعرجات ذلك الوادي. ولم يزل سائراً حتى بدا قرص الشمس بلونه الذهبي ورأى الطير تشجو وترتل على أغصان الأشجار وكانت قطرات الندى تنزل على جسده العاري من الثياب ورأى على ضوء قرص الشمس البادي رجالاً قادمين من الشام إلى نجد وقد أمعن النظر إليهم فإذا هم قوم ليلى وركبها فأنشد قائلاً :

ألا هل طلوع الشمس يهدي تحية ... إلى آل ليلى أو دنو غروبها
أتضرب ليلى إن مررت بذي الغضى ... وما ذنب ليلى إن طوى الأرض ذيبها

قال وما زال القوم آخذين طريقهم إلى نجد فلما وصلوا اضربوا خيامهم واستقروا هذا ما كان من أمرهم. وأما ما كان من أمر قيس فإنه لما رأى ذلك وتحقق أنه ركب ليلى جد في قطع الطريق وهو مسرور بذلك التوفيق وأقبل على الديار والشوق في قلبه كلهيب النار وهو فرح بوصول

ليلى إلى الديار. قال ولما وصل إلى الخيام وكان يلهج من شدة الركض فاستقبلته أمه وأخويه وابن عمه زياد وأخذوا يهدأون روعه ويلاطفوه وألبسوه الثياب وكان لا يدري ما حدث لوالده في مدة غيابه فأقبلوا عليه وأخبروه أن والده مريض. فقام قيس ودخل على والده وقد زال نشاطه وتمكن منه المرض وتزايدت عليه الآلام وانقطع صوته عن الكلام وعلا زفيره وشهيقه. فانكب قيس عليه وصار يقبله ويبكي وينتحب وقد نظر اليه والده نظرة الحنو والعطف والاشفاق وهو يعالج سكرات الموت فمد ذراعيه وأخذ قيساً وضمه إلى صدره وصار يقبله ويبكي حتى فاضت روحه وشرب كأس الحمام وهو كأس ليس لأحد منه فوات ولم يسلم منه ملك ولا جبار ولا غني ولا فقير. فعز ذلك على قيس ووالدته وأخوته وعشيرتهم وقومهم وأبناء عمهم حيث كان ابن الملوح سيداً لذلك الحي وعزيزاً عليهم فاستقبلوا الحكم بالرضى واستسلموا لموارد القضاء وقابلوا عوارض المحن و الضير بما قاله الشاعر :

كل ابن أنثى وإن طالت سلامته يوماً على آلة حدباء محمول

أما ما كان من أمر قيس فقد ظهر على وجهه الاكتئاب وعظم عليه المصاب وضعفت قوّته واشتدت بليته وأخذته رعدة شديدة واضطرب وغلب عليه البكاء والنواح ومزق ثيابه وغاب عن صوابه وعلا زفيره واشتد شهيقه حتى رق له عدوه وصديقه. فقام اخوته ورفعوه من فوق صدر أبيه ورشوا عليه الماء حتى أفاق وسلم أمره لله. وتسامع الناس بموت ابن الملوح فحضروا وغسلوه وكفنوه وحضر والد ليلى وقومه وشيعوه إلى مقره الأخير وواروه التراب وأقاموا عليه العزاء فقام قيس على قبر والده وعقر ناقته عليه وأنشد قائلاً :



قيس يعقر ناقته على قبر أبيه ابن الملوح ..

عقرت على قبر الملوح ناقتي بذي السرح لما أن جفاه أقاربه
وقلت لها كوني عقيرة فإنني غداة غد ماش وبالأمس راكبه
فلا يبعدنك الله يا بن مزاحم فكل امرء للموت لا بد شاربه

قال ثم أقاموا عليه العزاء وقام القوم وعزوا قيساً وإخوته بموت والدهم وقام والد ليلى وعزّ القوم ولم يعزِّ قيساً بموت والده. فعظم الأمر على قيس وتغير حاله وجن جنونه ومكث ثلاث ليالي لا يتكلم ولا يأكل ولا يشرب وقد اعتراه الهزال وأخذته رعشة شديدة لا تنقطع عنه. وأخذ أهله واخوته يراقبونه خوفاً عليه أن يخرج إلى خيام ليلى لما رأوا من حقد عمه عليه. وقد بلغ الخبر إلى ليلى وما فعله والدها من استحقار قيس ولم يقم له بواجب العزاء في والده فتألمت لذلك كثيراً واشتد بها المرض فكان لا يهدأ لها بال ولا يقر لها قرار وأصبح دمع عينيها سيّالاً وقد انقطعت أخبار قيس. ومضى على ذلك شهور وأيام وهي لا تسمع عنه شيئاً فأرسلت جاريتها مرجانة سراً إلى والدة قيس تسأل عن أحواله. فذهبت الجارية في ظلام الليل الدامس إلى حي قيس ودخلت على أمه فقامت لها والدة قيس واحتضنتها وقالت يا مرجانة كيف حال ليلى فوصفت لها الجارية حالها وما هي فيه فبكت أم قيس على قيس وليلى ثم سألتها الجارية عن قيس وحاله فقالت لها منذ أن توفي والده لم يمكث لدينا سوى ثلاثة أيام وكنا نراقبه خوفاً من أن يهيم على وجهه في القفار ثم تغافلنا عنه فخرج هائماً وقد تبطن هذه الجبال فتركنا له حاله. قال فرجعت الجارية إلى سيدتها وأخبرتها الخبر فازداد بها الجنون عندما سمعت ذلك فذهب بهاء وجهها وتغير لونها وتكدر صفوها وكان أمامها من الهم أمرين الأول كرهها لزوجها ورداً والثاني وحشتها لابن عمها قيس واشتياقها له. وكان لا يمر بها يوم إلا وترى خياله ولا تنام بالليل إلا وتراه في نومها. واشتد بها القلق فانطرحت على الأرض مغشياً

عليها فرفعتها جاريتها وأوسدتها على فراشها ولازمها المرض وأصبحت لا تعي شيئاً وكانت دائماً تغيب عن صوابها ولم يكن لها حديث سوى كلمة قيس. هذا ما كان من أمر ليلى.

وأما ما كان من أمر قيس لما طال بأهله غيابه خرجت أخته هند وأخويه ثعلبة وربيعة ومعهم ابن عمهم زياد وانطلق كل منهم إلى ناحية حول تلك الجبال التي تجاورهم وقد مضت.عليه مدة ثلاثة شهور وهو يتجول فيها وكان يقتات من أعشاب الأرض.فبينما كانت أخته هند تنظر يميناً وشمالاً رأت أثر قدميه في تلك الرمال فصاحت على أخويها وابن عمها زياد قائلة لهم هي آثار قيس فعاد الجميع إليها وساروا متتبعين تلك الآثار. ولم يزالوا سائرين من واد إلى وادي ومن جبل إلى جبل وإذا بقيس وهو يتسلق قمم الجبال. لم يزالوا يتابعوه فتارة يترك التسلق وتارة ينساب الى الرمل وقد أعياه التعب فجلس تحت احدى الأشجار عاري الجسد ممزق الثياب وعلا جسده التراب والرمل. فكانوا يمشون قليلاً قليلاً حتى قربوا منه وجلسوا بعيداً عنه خوفاً من أن ينفر عنهم وقد آذنت الشمس بالرحيل ودخل المساء وأتت غربان ذلك الوادي لتنام على أغصان الأشجار وكانت تهلل بنعيقها المشؤوم فلما سمع قيس أصواتها تذكر ليلى وبعده عنها فأنّ وبكى وأنشد قائلاً :

ألا يا غراب البين ما لك ناعيا أفارقت ألفا أو دهتك الدواهيا
ألا يا غراب البين عذبت مهجتي ولا زلت بالانشاد تكوي فؤاديا
ألا يا غراب البين دمعك جامد ودمعي أضحى في المحبة جاريا
ألا يا غراب البين لا بضت بيضة ولا زال ريش من جناحك خاليا

قال ثم إن قيساً بعد أن أتم شعره هدأ وصار ينظر يميناً وشمالاً وإذا بظبية أقبلت من علياء ذلك الوادي تريد المرعى والشرب من ذلك المكان

فنظر لها قيس وصاح عليها قائلاً أيا شبه ليلى هلمي إليّ فلم يتم صياحه إلّا وقد أقبلت عليه فقام وقبّلها وضمّها إلى صدره وصار يرتع معها ويأكل من ورق ذلك الوادي وكانت الشمس مائلة إلى المغيب متحلية بثوبها الذهبي الجميل. وكان الليل مقبلاً عليه فعند ذلك تهيأ له شخص ليلى في تلك الظبية فأنشد قائلاً :

يا ظبية البان ترعى في خمائله ... ليهنك اليوم أن القلب مرعاك
الماء عندك مبذول لشاربه ... وليس يرويك إلا مدمع الباكي
هبّت لنا من رياح الغور رائحة ... بعد الرقاد عرفناها برياك
ثم انثنينا إذا ما هزنا طرب ... على الرحال تعللنا بذكراك
سهم أصاب وراميه بذي سلمٍ ... من بالعراق لقد أبعدت مرماك
وعدّ لعينيك عندي ما وفيت به ... يا قرب ما كذّبت عينيّ عيناك
حكت لحاظك ما في الريم من ملح ... يوم اللقاء فكان الفضل للحاكي
كأن طرفك يوم الجزع يخبرنا ... بما طوى عنك من أسماء قتلاك
أنت النعيم لقلبي والعذاب له ... فما أمرَّك في قلبي وأحلاك
عندي رسائل شوق لست أذكرها ... لولا الرقيب لقد بلغتها فاك
سقى مني وليالي الخيف ما شربت ... من الغمام وحياها وحياك
إذ يلتقي كل ذي دين وماطله ... منا ويجتمع المشكو والشاكي
لما غدا السرب يعطو بين أرحلنا ... ما كان فيه غريم القلب إلّاك
هامت بك العين لم تتبع سواك هوى ... من علم العين أن القلب يهواك

قال وكان إخوته وابن عمه زياد وأخته هند متوارين خلف ربوة من ذلك الوادي خوفاً من أن يراهم قيس فينفر منهم وكانوا يسمعون صوته وإنشاده. وعندما أقبل الليل واسود الظلام ضربوا لهم خيمة صغيرة حيث كانوا قريبين من الديار ومنتظرين قيس تأخذه غفلة من النوم

فيتمكنوا من الاحتيال عليه وأخذه معهم. فبينا هم كذلك وإذا بقوم من الرعاة قد أقبلوا من ذلك الوادي فضربوا خيامهم وأضرموا النيران وطرحوا عليها شيئاً من اللحم وفاح رائحة الشواء في أرجاء ذلك الوادي وكانت الأشجار تتمايل في ذلك الليل في صوت هادئ وصعدت ألسنة النيران. فقصدهم رهط من الحيوانات الصغيرة ترسل أصواتها في ذلك الوادي مما أشجى وأهاج قلب قيس وحبه لليلى وقد صار الوقت سحراً وكان النسيم يمر عليه عليلاً متجهاً إلى حي ليلى فصاح قيس وأنشد قائلاً :

أيا مهديا نحو الحبيب رسالتي تلطف فإني في هوى وهوانِ
فمن مبلغ ليلى عني مقالـةً بـأن فـؤادي دائم الخفقـان
تـرك الطاغوت قلبـي رهينـاً وعيـوني تفـيض بالهمـلانِ
وجفاني من كان يسكن قلبي وجفاني من كان لا يجفـاني
تحملت سهماً أوّلاً من فراقه فلما رآني لا أخـور رمـاني
رمى مَقتلي واسترجع السهم داميا غـزال بنجلاويـن تنتضـلانِ
أأرجو شفاء منه وهو الذي جنى على بدني داء الضنى وشجاني
مررت على تلك الديار ووحشها دوان ومن يحكين غير دوانِ
فأنكرت العينان والقلب عارف قليلاً ولجّا بعد في الهمـلانِ
عشيـة بلّتني الدمـوع كـأنما ردائي بـرداً ماتحـاً خضلانـي
ضمن وصالي ثم ماطلن دونه وان ضمان البيض شر ضمانِ
أقول له والدمع يأخذ ناظري بأبيض من ماء الشؤون وقاني
أترضي عن الدنيا ومولاك ساخط وتمضي طليقاً وابن عمك عاني
وفي ذلك الوادي الذي أنبت الهوى جنابان من نواره أرجان
وماء تشيه الريح كل عشية كما رقـم البرد الصبيـغ يماني
مـررت بغـزلان على جنباتـه فأطلقن دمعي وأحتللـن جنـاني

وعالجني لوم الرفيقين في الهوى عشية مالي بالفراق يدان
يقولان أحياناً بقلبك نشوة وما علما أن الغرام سقاني
وكم غادر البين المفرق من فتى يمسح قلباً دائم الخفقان
ومنتزعٌ من بين جنبيه زفرة تخلي دموع العين في الهملان
وما الحب إلا فرقة بعد ألفة وإلا حذار بعد طول أمان
أيا جبلَيْ نجدٍ أبينا سقيتما متى زالت الأظعان يا جبلان
أناديكما شوقاً وأعلم أنه وإن طال رجع القول لا تعيان
أقول وقد مد الظلام رواقه وألقى على هام الربى بجران
نشدتكما أن تضمراني ساعة لعلي أرى النار التي تريان
وألقي على بعد من الدار نفحة تذم على عيني من الهملان
قفا صاحبي اليوم أسأل ساعة ولا ترجعا سمعي بغير بيان
هل الربع بعد الظاعنين كعهده وهل راجع فيه عليّ زماني
وهل أمسى ذاك الشيخ عرنين ناشق وهل داق ماء باللّوى شفتان
ولا عجب قلبي كما هن غادر على أن أضلاعي عليه حوان
لك الله هل بعد الصدود تعطف وهل بعد ريعان البعاد تداني
وما غرضي أني أسومك خطة كفاني قليل من رضاك كفاني

قال ولم تزل أخوة قيس وابن عمه زياد وأخته هند يراقبوه طول الليل لعله يغفل أو ينام ليتمكنوا من أخذه معهم إلى الحي ولكن الليل قد مضى وبدأ نور الصباح وطلعت الشمس من بين تلك الروابي مرسلة أشعتها الذهبية على ذلك الوادي الممتلئ بالأشجار والمياة العذبة. فقام قيس ومشى في عرض ذلك الوادي وإذا بقطيع من الغزلان قد أقبل فانطلق قيس يجري وراء ذلك القطيع كالسهم ثم تبطن الوادي وغاب عن أبصارهم ورجع كل من إخوته وابن عمه وأخته هند- إلى الحي بدون جدوى.
هذا ما كان من أمرهم.

أما ما كان من أمر قيس فانه لما تبطن الوادي هام في الجبال والرمال وكان دائماً يسرح مع الغزلان وقد مضى عليه وقت كبير وهو هائم على وجهه في تلك الوديان وقد توحش وانسدل شعر رأسه على جسده وتغير شكله وحاله وأصبح في صورة مريعة.فبينما هو يدور في بطن ذلك الوادي وإذا بامرأة عجوز توقد النيران تحت إناء من الفخار فوقف قيس على رأسها وهو بتلك الحالة المتوحشة.فلما رأته تلك المرأة فزعت منه وصرخت بأعلى صوتها حينما رأته عريان ثم هرولت إلى أبنائها وكانا جلوساً عند قطيع غنم لهما فقالت لهم أي بني إن جنياً هبط من الوادي وهجم علي فقام أبنائها مسرعين إليه فوجدوه جالساً أمام القدر يسرح بنظره في تكاثف الدخان فقالوا له أجني أم أنسي فنظر إليهم وأنشد قائلاً :

خليليّ لا والله ما بي ضلالة ... ولكن ليلى حبّها قد بلانيا
أقول لركب رائحين لعلكم ... تحلون من بعدي العقيق اليمانيا
خذوا نظرة مني فلاقوا بها الحمى ... ونجداً وكثبان اللوى والمطاليا
ومرّوا على أبيات حي برامة ... فقولوا لديغ يبتغي اليوم راقيا
عدمت دوائي بالعراق فربما ... وجدتم بنجد لي طبيباً مداويا
أرى الحب داء قد تمكن في الحشا ... وليس سوى ليلى طبيب مداويا
تمر الليالي والدهور ولن أرى ... هواي بها يزداد إلا تماديا
وقولوا لجيران على الخيف من مُنى ... تراكم من استبدلتم بجواريا
ومن حل ذاك الشعب بعدي ... وأرشقت لواحظه تلك الظباء الجوازيا
ومن ورد الماء الذي كنت وارداً ... به ورعى الروض الذي كنت راعيا
فوا لهفتي كم لي على الخيف شهقة ... تذوب عليها قطعة من فؤاديا
صفا العيش من بعدي لحيّ على النقا ... حلفت لهم لا أقرب الماء صافيا
فيا جبل الريان أن تعر منهم ... فاني سأكسوك الدموع الجواريا

ويا قرب ما أنكرتم العهد بيننا نسيتم وما استودعتم الودّ ناسيا
أأنكرتم تسليمنا ليلة النقا وموقفنا نرمي الجمار لياليا
عشية جاراني بعينيه شادن حديث النوى حتى رمى بي المراميا
رمى مقتلي من بين سجفي غبيطة فيا رامياً لا مسّك السوء راميا
فيا ليتني لم أعل نشزاً إليكم حراماً ولم أهبط من الأرض واديا
ولم أدر ما جمع وما جمرتا مني ولم ألق في اللاقين حيا يمانيا
ويا ويح نفسي كيف زايدت في مها بذي البان لا يشرين إلاّ غواليا
ترحلت عنكم لي أمامي نظرة وعشر وعشر نحوكم لي ورائيا
ومن حذر لا أسأل الركب عنكم وأعلاق وجدي باقيات كما هيا
ومن يسأل الركبان عن كل غائب فلا بد أن يلقى بشيراً وناعيا
وما مغزل أدماء تزجي بروضة طلا قاصراً عن غاية السرب وانيا
لهما بغمات خلفة تزعج الحشا كجس العذارى يختبرن الملاهيا
يحور إليها بالبغام فتنثني كما التفت المطلوب يخشى الأعاديا
بأروع من ظمياء قلباً ومهجة غداة سمعنا للتفرق داعيا
تودعنا ما بين شكوى وعبرة وقد أصبح الركب العراقي غاديا
فلم أر يوم النفر أكثر ضاحكاً ولم أر يوم النفر أكثر باكيا
ولو انني أشكو الذي قد اصابني إلى ميت في قبره لرثى ليا

ثم صمت قليلاً وأخذ يسرح بنظره ويلعب بالتراب والقوم وقوفاً على رأسه فلم يشعروا إلا وقد صرخ صرخة دوى منها ذلك الوادي قائلاً ليلى ليلى نشدتك الله أن ترحمي طريد هواك ليلى ارحمي من فقد عقله وصوابه في رضاك. ليلى كفاك إساءة لي ليلى لقد دنا الرحيل وليس لي دواء لدائي فان دائي قد أعيا الأطباء وان دوائي أنت. قال فأخذت القوم الشفقة عليه والتفت بعضهم إلى بعض متشاورين بالتحايل عليه

وأخذه معهم إلى الخباء لعلهم يجدون له مخرجاً مما هو فيه قال فنظر قيس إلى لفتاتهم فأنشد قائلاً :

ألا أيها الركب اليمانون ما لكم تشيعون بالبطحاء برقا يمانيا
أرى لفتة منكم إليَّ مريبة فهل بكم من لوعة الحب ما بيا
تريدون إخفاء الغرام بجهدكم وهل يكتم الإنسان ما ليس خافيا
أبى الله أن يخفى غرام وراءه دموع وأنفاس صدعن التراقيا
ويا رفقة مرت بجرعاء مالك تؤم الحمى أنضاؤها والمطاليا
نشدتكم بالله ألّا نشدتم به شعبة أضللتها من فؤاديا
وقلتم لحيّ نازلين بقربه أقاموا بها واستبدلوا بجواريا
رويدكم لا تسبقوا بقطيعتي صروف الليالي إن في الدهر كافيا
أفي الحق أني قد قضيت ديونكم وانّ ديوني باقيات كما هيا
فوا أسفي حتام أرعى مضيعا وآمن خوانا وأذكر ناسيا
وما زال أحبابي يسيئون عشرتي ويجفونني حتى عذرت الأعاديا
وخير أصحابي من كفاني نفسه وكان كفافاً لا عليّ و لا ليا
ألم تر أن الحيّ طال نجيهم لبين ولبوا للفراق مناديا
وقالوا أتعدنا للرحيل غدية فوا حزنا أن أصبح الركب غاديا
فيا قلب عاود ما ألفت من الجوى معاذ الهوى أن تصبح اليوم ساليا
ويا كبدي ذوبي ويا مقلتي اسهري ويا نفس لا تبقي من الوجد باقيا
ويا صاحبي المذخور للسرد دونه سأصفيك ودي معلنا ومناجيا
فلا تدن من ذاك الغزيل إنه يفوتك مرمياً ويصميك رامياً
وبلغ نداماي الذين توقعوا لقائي بعد اليوم أن لا تلاقيا
فلا تطمعوا في برء ما بي فإنه هو الداء قد أعيا الطبيب المداويا
و لم أنس يوماً بالحمى طاب ظله ونلنا به عذباً من العيش صافيا

وليلة وصل قد لبسنا شبابها إلى أن أشاب الصبح منها النواصيا
ذكرنا شكاوى ما لقينا من الهوى فلما تصالحنا نسينا التشاكيا
وبتنا على رغم الغيور يضمنا جميعاً حواشي بردها وردائيا
وكانت اساءات الليالي كثيرة فما برحت حتى شكرنا اللياليا

فعلموا من شعره أنه قيس المجنون بحب ليلى فحايلوه وأخذوه معهم إلى خبائهم وغسلوا وجهه وأزالوا ما به من الأتربة والأوساخ وألبسوه ثوباً من ثيابهم وما زالوا يحدثونه ويهدأون روعه وأنه قريب من دار ليلى. فعندما سمع ذلك القول دخل عليه النشاط وما زالوا به حتى أكل معهم وتكلم مع المرأة العجوز في أمر ليلى والوصول إليها فأخبرته العجوز على أنها ستقوم بمساعدته. ولما كان الصباح قامت العجوز وأخذت معها بضاعة من العطور والنجوم وابتاعتها حتى وصلت خباء ليلى فلما وصلت إلى الخباء قابلتها مرجانة جارية ليلى وكانت الجارية في غم شديد على سيدتها وما تعانيه من هم ومرض على فراق قيس وبعدها عنه وقد نظرت العجوز إلى الجارية وكان لها معرفة بمرجانة فسألتها عن ليلى وطلبت مقابلتها. فقالت لها الجارية لا تتعبي نفسك فإنها لا تتكلم منذ ثلاثة أيام ولم يدخل عليها أحد قال فرجعت العجوز من حيث أتت وسألت ابناءَها عن قيس فقالوا لها إنه بعد ذهابك عاوده جنونه وقام مذعوراً وتبطن الوادي وقصد الروابي والكثبان فعدونا خلفه فلم ندركه وغاب عن أعيننا هذا ما كان من أمرهم.

أما ما كان من أمر قيس فإنه لما ذعر وتبطن ذلك الوادي قابل في طريقه رجلاً من بني أسد وكان هذا الرجل قد خرج من داره طالباً البراري والقفار راكباً على راحلته ترفعه أرض وتخفضه أخرى. وما زال الرجل يقطع السهول والأوعار حتى وصل إلى حي بني حنيفة فبينما

هو يسير إذ نظر إلى روضة معشبة كثيرة الأزهار والرياحين فدعته نفسه إلى الإلمام بها وأخذ الراحة. فنزل عن راحلته وأناخها إلى جانب شجرة كبيرة وجلس بجانبها فما إن مكث قليلاً وهو يتأمل في تلك الروضة المزهرة وتلك المروج الطويلة إذ سقط جراد كثير العدد على ذلك الوادي فافترش جنباته وأرضه طولها والعرض قال الرجل فتعجبت من ذلك ثم رأيت شخصاً قد أقبل من صدر البرية ناحل الجسم عاري الجسد وشعره منسدل على صدره فراعني منظره وملأ قلبي خوفاً من شكله فلما دنا مني قلت له من أنت يا أخ العرب فأنشد قائلاً :

إليك عني فإني هائم صب   أما ترى الجسم قد أودى به العطب

ثم تنحى قليلاً ومال إلى شجرة واتكأ عليها ثم صار يتمرغ على الأرض ويلعب بالتراب وأنا أنظر إليه. فلما أبصرني التفت إليّ وقال يا عم أتعرف ليلى العامرية قلت لا ولكني أسمع بحديثها مع قيس الذي يقال له المجنون. فقال لي أنا قيس ولكني والله لست مجنوناً وإنما بي عشق شديد بها فأنشد قائلاً :

جنون وعشق ذا يروح وذا يغد   فهذا له حد وهذا له حد
هما استوطنا جسمي وقلبي كليهما   فلم يبق لي قلب صحيح ولا جلد
وقد سكنا تحت الحشا وتحالفا   على مهجتي أن لا يفارقها الجهد
فأي طبيب يستطيع بحيلة   يعالج من دائين ما منهما بد

قلت له متى حدث بك العشق. قال من زمن طويل ونحن صبية نرعى البهم ولكن أكتمه حتى غلب علي ثم صرخ صرخة قوية وأنشد قائلاً :

كتمت جنوني وهو في القلب كامن فلما استوى والحب أعلنه الحب
وخلى صحيح الجسم حتى يذيبه فلما أذاب الجسم ذل له القلب
فجسمي نحيل للجنون وللهوى فهذا له نهب وهذا له نهب

قال فقال الرجل يا قيس ارجع عما أنت فيه واترك عنك هذه الهواجس وتب إلى الله عما أنت عليه فقد شاع أمركما في كل مكان واشتهر حديثكما بين العربان وأنى أرى أنه قد اعتراك الهزال وتغلبت عليك الهموم والأحزان وعدم الهجوع والقرار والتجول في الجبال وان حالتك هذه حالة ذل وبؤس وكل ذلك من أجل فتاة فالفتيات كثيرات وفيهن من هي أجمل منها جمالاً يضاهي البدر فإن دمت يا أخي على هذا الحال فمصيرك إلى الهلاك .فأجابه قيس وقال له يا عم كيف أطيق الصبر وقد اشتعل قلبي بلهيب الهوى واحترق بنار الجمر فدعني أقاسي العذاب وأقتحم موارد الهلاك وأنشد قائلاً :

فيا قلب مت حزناً ولا تك جازعاً فإن جزوع القوم ليس بخالد
هويت فتاة كالغزالة وجهها وكالشمس يسبى دلها كل عابد
ولي كبد حرى وقلبي معذب ودمع حثيث في الهوى غير حامد
وآية وجد الصب تهطال دمعه ودمع شجي الصب أعدل شاهد
على ما انطوى من وجده في ضميره على الآنسات الناعمات الخرائد
فيا ليت أن الدهر جاد برجعة وهيهات أن الدهر ليس بعائد
إليك فعز النفس واستشعر الأسى فحبك ينمو زائد غير بائد
وقد شعثت ليلى وشطى مزارها وغيرها عن عهدها قول حاسد
فيا أسفي حتام قلبي معذب إلى الله أشكو طول هذي الشدائد

قال الرجل ثم خر مغشياً عليه فبادرت إلى الماء ونضحته بها على وجهه فأفاق بعد حين وتكدرت من أجله. فقلت له ويحك يا قيس إني أراك

في عذاب أليم وخطر عظيم وحال سقيم ولا شك أن هذا البلاء الذي أنت فيه والعناء الذي تقاسيه هو من هواجس رديئة ووساوس شيطانية فبادر وتب إلى رب العالمين فهو يكشف عنك هذا الداء الدفين. قال فلما سمع قولي بكى من عظيم جواه حتى تزلزلت أركان أعضائه وأنشد قائلاً :

يجيشون في ليلى علي ولم أنل مع العذل من ليلى حراما ولا حلا
سوى أن حباً لو يشاء أقلها ولو تبقي لي ظلاً لكان لها ظلا

قال الرجل ثم قطع شعره وذهب يجري كالريح فانذهلت من أمره ونهضت مسرعاً في أثره فلم أدركه وأخذني الجهد ورأيته قد تعلق بجبال نجد فرجعت عنه إلى موضعي لأخذ الراحة. فبينما كنت جالساً وإذا بجارية مقبلة على راحلتها وهي كالبدر الساطع وفي يدها بردة وقصعة مملوءة بالطعام فلما رأتني سلمت فرددت عليها السلام وتعجبت من جمالها وفصاحتها فقلت لها ما شأنك يا حرة العرب وأين تريدين. قالت ألم ترى رجلاً عاري الجسد نحيل الجسم أضناه الهوى كئيب النفس قد اسود جلده من نفح البرد وحر الشمس كان هائماً على وجهه في هذا الوادي. قلت لها وقد كنت معه قبل قليل وقد نفر مني ونهضت في طلبه فلم أدركه وقد تسلق هذا الجبل الوعر. فبينما هما في الكلام وإذا به يدور فوق الجبل فقلت لها ها هو أنظريه فصاحت به يا قيس فلم يرد لها فأنشدته قائلة :

إذا نظرت ليلى تكلم طرفها فجاوبها طرف ونحن سكوت
ولو خلط السم المذاب بريقها وأسقيت منه نهلة لبريت

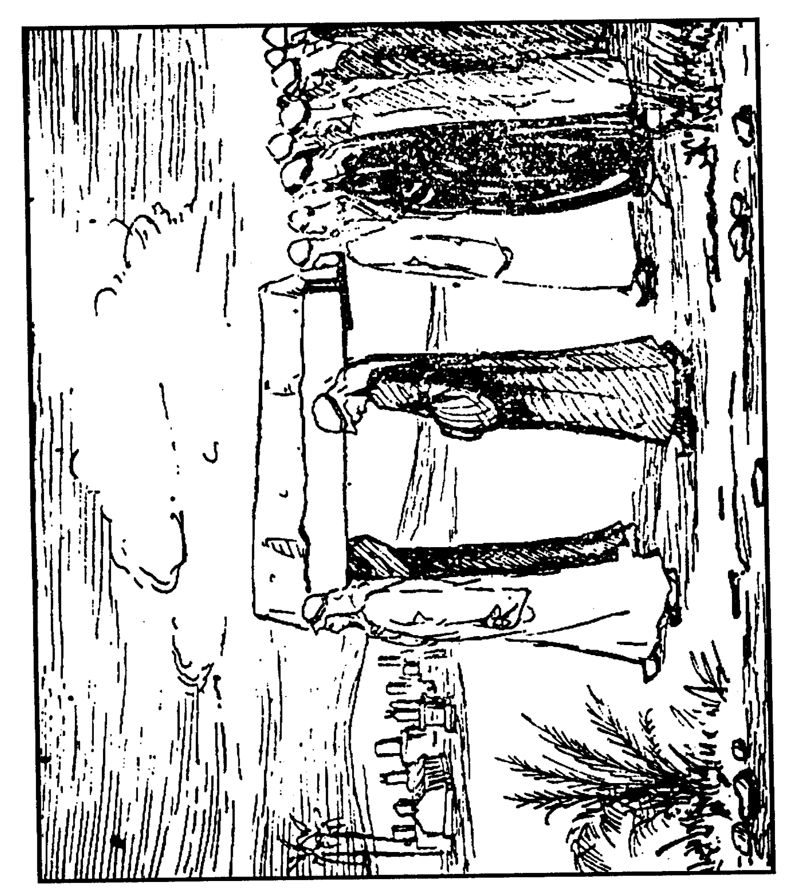
قال الرجل فلما سمع قيس الشعر نزل يهرول من فوق الجبل حتى

صار أمامها فألقت نفسها عليه وقبلته وأعطته البردة فأخذها وستر بها عريه ثم ناولته الطعام فجلس وأكل وهو يبكي ويتململ وقد تعجبت منه غاية العجب. فالتفت إلى الجارية وقلت لها يا حرة العرب من يكون هذا الغلام فأني أرى أحوالكما غريبة فقالت له هذا والله أخي وشقيقي قيس بن الملوح وأن أباه سيد العرب وقد اشتهر بالكرم ومكارم الأخلاق وأن الذي تراه من أخي هو أنه عشق ابنة عمه ليلى العامرية وهي عشقته أيضاً وقد بدأ عشقهما وهما صغيران كانا يرعيان غنم أهلهما فلما كبراحجبت عنه ليلى فاشتد عشقهما وتواترت أخبارهما بين العرب فامتنع والد ليلى من تزويجه إياها وزوجها لغيره. فهام أخي كما تراه واعتراه الجنون ومضى عليه سنون وهو يهيم مع الوحوش في الوديان ولا يقر له قرار ولا يلتفت إلى أحد إلا إذا ذكرت له ليلى عاد له عقله قال فلما انتهت من كلامها التفت إليّ قيس وقال أيها الرجل إلى أين أنت سائر قلت له إلى حي بني عامر قال بالله عليك متى وصلت إلى تلك المنازل اقرئ ليلى مني السلام وأعلمها بحالي وما شاهدت من أحوالي وبلغها مني هذه الأبيات :

أرى الناس أما من تجدد وصله ... فغث وأما من خلا فسمين
تخبرني الأحــــلام أني أراكم ... فيا ليت أحلام المنام يـقين
شهدت بأني لم أخنك مودة ... وأني بكم حتى الممات ضنين
وأن فؤادي لا يلين إلى هوى ... سواك وإن قالوا بلى سيـلين

فما انتهى من قوله وإذا بقطيع من الغزلان قد أقبل من صدر ذلك الوادي طالباً الماء من ذلك المكان. فما رأيناه إلا أن قام من بيننا واثباً على قدميه وأرخى البردة عن منكبيه ثم نظر يميناً وشمالاً وصاح صيحة وذهب مسرعاً يجري كالريح وراء ذلك القطيع فجعلت اخته تبكي وتلطم

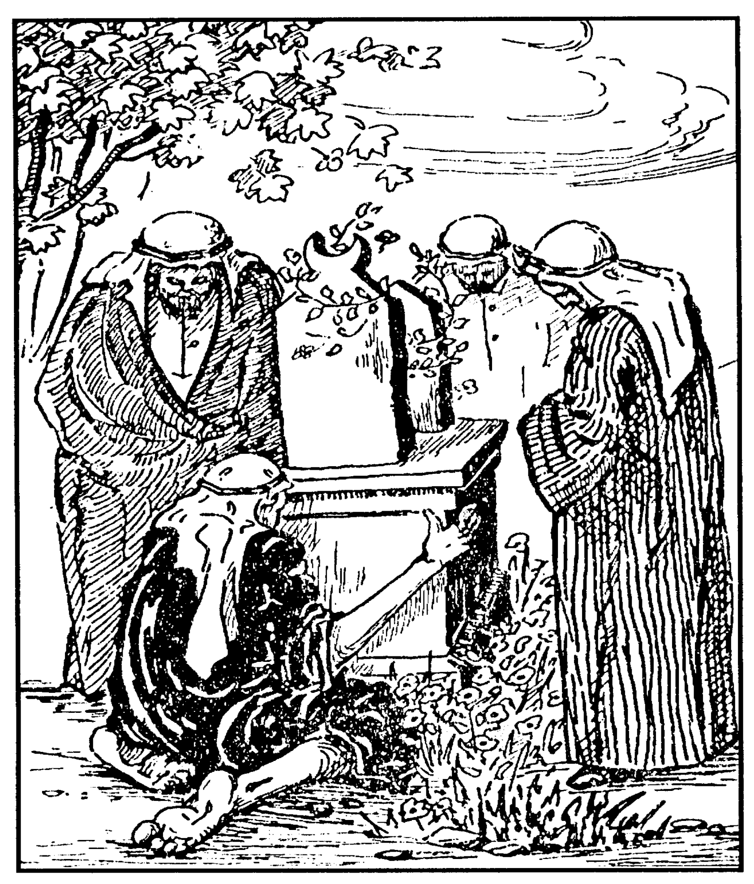
على ما اصابه ودهاه و لم أشعر بعد قليل إلا وثلاثة أشخاص قد أقبلا على رواحلهم يتفقدونه في ذلك الوادي وكانوا هؤلاء إخوته وابن عمه زياد فلما وصلوا وجدوا أختهم هند والبردة أمامها وهي تبكي وتلطم وقد حدثتهم بحديثه وما جرى لها وكيف نفر منهم عندما رأى قطيع الغزلان وقد تبطن الوادي ولم يـر له أثر.فحزنوا لذلك الأمر ثم أخذوا أختهم معهم ورجعوا إلى الحي. هذا ما كان من أمر الرجل الأسدي فانه ودعهم وركب راحلته وجد في قطع الطريق حتى وصل إلى حي بني الحريش وكان وصوله قبل مغيب الشمس قال فقصدت إلى مضرب كبير من الخيام فلما دنوت منه وقفت متفكراً متحيراً أمام تلك الخيام وإذا أنا بجارية قد أقبلت وقصدت نحوي فلما وصلت إليّ سلمت فرددت عليها السلام ثم قالت من أنت يا وجه العرب ومن أين أقبلت فقلت لها إني رجل من بني أسد وقد أتيت هنا لأجل ليلى خليلة قيس وقد حملني لها سلاماً وشعراً فهل لك أن تدليني عليها .قال فتبسمت الجارية ثم قالت لي يا وجه العرب إن ليلى هي سيدتي وأنا جاريتها وان ليلى طريحة على الفراش لا تقدر على القيام ولا على الكلام وغائبة عن الصواب ولكن أطلب منك أن تعود الآن من حيث أتيت وأن تأتني إذا جن الليل ودخل القوم في النوم فتجدني واقفة لك بالانتظار وسأدخلك عليها وترى بعينيك حالها وما هي فيه من السقام وشدة الآلام والسبب في ذلك فراقها من ابن عمها قيس.قال الرجل فرجعت من حيث أتيت متعجباً من ذلك ومصمماً بالعودة فانتظرت حتى إذا جن الليل وأسدل الظلام ستاره قمت وذهبت نحو ذلك الخباء فوجدت الجارية واقفة لي بالانتظار فأخذتني من يدي وأدخلتني على ليلى فنظرت إليها وهي نائمة على فراشها لا تتحرك وقد انقطع صوتها وهي تذرف الدمع السخين وتبكي من فؤاد موجوع.فتقدمت إلى جانبها وسلمت عليها فردت عليّ



شهيدة الغرام ليلى العام العامرية محمولة على الأعناق إلى مقرها الأخير ..

بصوت نحيل. وقلت لها إني لقيت قيساً بالطريق فحملني كلاماً وشعراً فأنشدتها ما سمعت من شعره فصارت تبكي وتلطم خديها وتعض على يديها وكانت الجارية تتلطف بها وتضمها إلى صدرها وقد احتارت الجارية في أمرها ثم التفتت إليّ وقالت يا وجه العرب أنا ليلى المشؤومة عليه والمشتاقة لرؤيته. وتنهدت من قلب محترق وقالت إذا رأيت قيساً فقل له إن ليلى على فراش الموت فهل من زورة تراك فيها قبل موتها ثم غابت عن صوابها ولم تنطق بحرف واحد أبداً. فعظم عليّ الأمر فقمت وذهبت وركبت راحلتي قاصداً بلادي وأنا متعجب من ذلك الشأن. هذا ما كان من أمر ليلى فإنها من يوم ما فارقت قيساً من وادي تيماء كانت لا تلذ بطعام ولا شراب وكانت تقضي ليلها بالبكاء والنحيب وتخاطب نفسها وتعض على يديها أسفاً وندامة حتى زال نشاطها وتمكن منها المرض وفي كل يوم تزداد عليها الآلام وكانت دائماً تلفظ اسم قيس ابن عمها. فانزعج منها زوجها ورداً وتضايق من ذلك فلطمها على وجهها لطمة قوية ثم خرج وطلقها طلاقاً بتاتاً وجمع ماله ونواله وأرسل إلى أبيها بلاغ طلاقها وركب راحلته وارتحل من وقته ولم يرزق منها بأولاد. فلما علم أبوها وأهلها بذلك وأنها لفظت الرجل الغني في المال والجاه لأجل ابن عمها قيس أخذوا يضربونها ليلاً ونهاراً حتى أخذها الخبل والبكاء وانقطع صوتها عن الكلام ومكثت ثلاثين يوماً لا تأكل ولا تشرب إلا جرعة واحدة من لبن النياق حتى محا المرض والبكاء جسدها وانقفلت عيناها الكحيلتان وسلمت الروح إلى باريها فقام أبوها وأهلها وكفنوها وواروها التراب وأقاموا عليها العزاء وأكثروا عليها الانتحاب ومزقوا الثياب على ليلى.

قال الراوي فلما ماتت ليلى انتشر خبر موتها في جميع الجهات هذا



قيس جاثي على ركبتيه يحتضن قبر ليلى وحوله عمه وإخواته.

وكان قيس هائماً في الجبال والوديان فبينما هو يطوف من مكان إلى مكان وقد ركبته الهموم والأحزان إذ مر به رجلان وكان قيس مطروحاً على ظهره في لفح الشمس باكياً حزيناً كما هي عادته إذ سمع الرجلان وهما يتكلمان بموت ليلى. فقام قيس مذهولاً واقفاً على قدميه وناداهما وأقسم عليهما بأن يقفا فوقف له الرجلان فسألهما بماذا تتحدثان عن ليلى وأين هي وَكانا لا يعرفان قيساً فنعياها له وقالا له إنها ماتت منذ ثلاثة أيام. قال فلما سمع قيس ذلك الكلام صار النور في عينيه ظلاماً وصاح بأعلى صوته وداعاً يا ليلى هل من رجوع لأرى وجهك الجميل وعينيك المكحولتين ثم أنشد قائلاً :

أيا ناعيي ليلى بجانب هضبة ... أما كانَ ينعاها إليّ سواكما
ويا ناعيي ليلى بجانب هضبة ... فمن بعد ليلى لا أمرت قواكما
ويا ناعيي ليلى قد هجتما لنا ... تباريح نوح في الديار كلاكما
فلا عشتما إلا حليفي مصيبة ... ولا متما حتى يطول بلاكما
وأسلمت الأيام فيها عجائبا ... بموتكمـــا أني أحب رداكما
أظنكما لا تعلمان مصيبتي ... لقد حل بين الوصل فيما أراكما

ثم قام وتوكأ في ظلام الليل قاصداً الديار ولم يزل يتوكأ ويحبو ويقوم ويجلس حتى بدأ نور الصباح وانهزم جيش الليل أمام جيش النهار وظهرت الشمس تبدو من خدرها تتهادى في الأفق وقد أرسلت أشعتها الذهبية إلى تلك الجبال والوديان وتلألأت أنوارها على الأرض وانهزم الضباب تاركاً على الصحاري آثار الندى وقد تبللت به الأشجار ففاحت روائحها العطرية واعتلت الطيور على الأغصان تغرد تغريداً شجياً وتنتقل من غصن إلى غصن. وكان قيس كلما سمع تغريد الطيور صاح بملء صوته ليلى تركتيني وحيداً في هذه الحياة البائسة لقد أصبحت أسيراً

للأحزان والهموم بموتك يا ليلى ليتني مت قبل أن أفقدك لقد سلبتني بموتك لباب حياتي واستنزف قلبي دماً وأصبح الشقاء عرضة في سبيلي وقد ربض الحزن وراء حجب سعادتي وصارت المرارة ثمالة راكدة في أعماق قلبي لقد مات كل أمل بعدك يا ليلى وسألحق بك عما قريب وسأغادر هذا العالم. قال ثم ابتهل إلى الله في خشوع وخضوع وقال أنت تعلم يا خالقي وخالق كل شيء وربي ورب كل شيء إنني عبدك المعترف لك بالوحدانية وإني صرت ضعيف القوى وقد هدم أركاني حب ليلى وقد خفت صوتي وانتحل جسمي أسألك أن تجمع بيني وبينها إن كانت على قيد الحياة وإن كانت يد الأقدار قد انتشلت روحها وكتب لي في سابق علمك أني لا أراها بعد اليوم فخذ روحي إليك كما أخذت روحها لأستريح مما أنا فيه وأتخلص من هذه المتاعب التي أقاسيها. ولم يزل يدعو بذلك وكان في غم شديد وحزن ما عليه من مزيد. ولم يزل كذلك حتى وصل إلى حي أهل ليلى بعد كل تعب ومشقة وعناء وكان قيس من يوم أن حجبت عنه ليلى لم يدخل حي قومها. ولكن في ذلك اليوم أخذته الجرأة إلى أن تخلل الديار حتى وصل الى أبيها وأمها الحزينين فوجد أهله وأخوته وجميع سادات نجد جلوساً عندهم يعزونهم في ليلى. فلما رأوه بكوا جميعاً. وجددوا حزنهم على ليلى حينما رأوا قيساً ثم قام والد ليلى واحتضنه وبكى بكاء مراً وصار يقبل قيس ثم إن قيساً استخبرهم عن قبرها فذهب معه والدها وبعض من أهله خوفاً عليه من هلاك. فلما رأى قبر ليلى انقلب عليه جاثياً واحتضنه وكانت الأشجار تظلل القبر فصاح قيس أيها القبر لقد ضممت رفات من أحبها، فيك انزوت مسراتي، وفيك دفنوا كل أمل لي في الحياة فيك انتهت كل ابتسامة عذبة وفي ساحتك الخرساء نمت كآبتي كما نمت فوقك هذه الأشجار التي تظللك بغصونها وأوراقها. أيها القبر الطاهر إن روحي

ترفرف حول رفات ليلى مستأنسة بها.أيها القبر المقدس ترفق بجثمان ليلى لقد كانت أتم النساء حسناً وكانت بالأمس ابتسامة في ثغر الدهر تزدهي بها الحياة وتفخر الدنيا بحسنها وقد أصبحت اليوم سراً غامضاً في جوفك. نعم إنها ذهبت إلى عالم غير هذا العالم وكان من أمرها ما كان غير أنها زرعت في فؤادي شجرة الأحزان. ثم كان يضم القبر ويحتضنه ويقول ليلى أين فمك الضحوك أين ثناياك البيضاء أين رقة ابتساماتك العذبة أين دلالك يا ليلى.أبكي أيتها العينين على رحيل ليلى الأبدي وسفرها الطويل الشاق الذي لا وصول إليه.وأخذ يصيح وداعاً يا ليلى ثم غاب عن صوابه فأتوه اخوته برفق وفضوا احتضانه للقبر فاندفع منهم وصارت عيناه مقفولتين وارتمى على ظهره وكان له شهيق وخشخشة من صدره ولم يزل كذلك حتى مضى النهار وأقبل الليل وتوسط القمر في كبد السماء مرسلاً نوره على ذلك المكان وفوق ذلك القبر في جوف الليل فكان يعطي القبر مهابة وجلالاً. جلس قيس ينظر إلى إخوته ووالد ليلى وكانوا مطرقين برؤوسهم إلى الأرض في صمت عميق في سكون ذلك الليل الرهيب وذلك الوادي الذي لم يسمع فيه غير عواء بعض الحيوانات الصغيرة ثم قفل نظره خلفه فوجد نيراناً منتشرة في ذلك الوادي الذي فيه أهل ليلى لطهي طعام العشاء فأخذت هذه المناظر تمزق قلبه ثم نظر إلى القبر الذي طوى ابنة عمه ليلى قتيلة الحب وضحية الإخلاص وكان يناديها فلا تجيب وإذا بدمع قيس يسيل من عينيه فأنشد قائلاً :

أيا قبر ليلى لو شهدناك أعولت   عليك نساء من فصيح ومن عجم
ويا قبر ليلى أكرمني بحملها   يكن لك ما عشنا عليها بها نعم
ويا قبر ليلى إن ليلى غريبة   بأرضك لا خال لديها ولا عم
ويا قبر ليلى ما تضمنت قبلها   شبيهاً لليلى ذا عفاف وذا كرم



مضارب خيام آل قيس وليلى وقومهم في بطاح مكة .

ويا قبر ليلى غابت اليوم أمها وخالتها والحافظون لها الـذمم

قال ثم انه كان يأوي إلى القبر ويدور حوله ليلاً ونهاراً وكان يرثي ليلى بالأشعار حتى جف جلده وضعفت قوته وكان لا يبرح عن قبر ليلى ويلعب بالتراب. فمر عليه رجل من بني هلال وكان يعرفه من قبل فسلم عليه وجلس منه بمكان قريب فرد قيس عليه السلام فقال له يا قيس هون عليك وارحم نفسك فإن ليلى قد ماتت فادع الله أن يرحمك مما أنت فيه من هذا المرض. قال فلما سمع قيس قول الرجل انطلق بين الأشجار يقطعها ويمزق أعوادها وقد خاف منه الرجل أن يبطش فيه فتوارى منه على بعد وقد هاج قيس كما تهيج فحول الجمال واندفع يخبط الأرض بكعبيه وينوح نوح الثاكلات ويصيح ليلى. ليلى. وداعاً إلى الأبد. ثم اندفع أمامي كالسهم جرياً إلى قبر ليلى فاصطدم به واحتضنه حتى انهارت عظام جسده من حجارة القبر وخرج منه أنين من أعماق قلبه فقمت من موضعي لأراه. فبينما أنا ذاهب إليه وإذا بأخته هند مقبلة من صدر الوادي يعلو نحيبها عليه ثم جاءته فرأته يتقلب على الأرض كالأفعى ثم قام وتصدى إلى القبر ليفتحه فصدته الحجارة الكبرى التي كانت مرصوصة على القبر محكا في مدخله. فكان يضم القبر إلى صدره ويصيح قائلاً أيها القبر ترفق بليلى فهي عنقود قلبي قد انفرط فيك وأذابته حرارة الحب. ايها القبر المقدس ارحم هذا السائل المنصهر قبل أن تشربه الأرض. ثم غمر رأسه في الرمل بجانب القبر متوهماً أن يراها أو أن تلبي نداءه وهو يقول أين محياك يا ليلى يا إبنة العم أين يداك الحارة لأقبّلها وأطبع على أناملها ختماً من شفاه الحب ولم يزل كذلك مغمراً وجهه في كثيف من الرمل عند قبر ليلى حتى غشي عليه ومكث في غشيته بين الثليج والجنون. فرأى في غشيته ليلى

بهندامها وشكلها وهي تبتسم إليه وفي يدها زهرتان تشير بهما إليه وتقول له ستتزوج بها وقت أن تنساني بالمحب الجديد.وكان يهذي في غشيته ثم فاق مذعوراً يرتعد كالريشة في الهوى ولم يجد ذلك الطيف الذي كان يناجيه غير الوادي وصفير القبور وأخته هند وكانت تبكي عليه بكاء لا مزيد عليه.ثم أخذته إلى صدرها واحتضنته فصارت تتلطف به وهو يقول لها يا هند إني لا أستطيع صبراً.كان خيالها أمامي كانت ليلى معي لقد أعطتني زهرتين ومسكتهما بيدي إنها سلبتني لباب حياتي ارحميني يا ليلى خذيني إلى جانبك. هذا وكانت أخته تهون عليه وتسليه وقد استولت عليه الأحزان والهموم وصارت حالته على أسوأ ما يكون فبينما هما كذلك إذ أبصر قيس غراباً سقط أمامه على شجرة مجاورة لقبر ليلى وصار ينعق فدنا منه قيس وأنشد قائلاً:

ألا يا غراب البين هيّجت لوعتي فويحك خبرني بما أنت تصرخ
أبا لبين من ليلى فإن كنت صادقا فلا زال عظم من جناحك يفسخ
ولا زال رام قد أصابك سهمه فلا أنت في عش ولا أنت تفرخ
ولا زلت من عذب المياه منفراً ووكرك مهدوماً وبيضك يرضخ
فإن طرت قادتك البلايا وإن تحم تقيض ثعبان بوجهك ينفخ
وعاينت قبل الموت لحمك مشدخاً على حر جمر النار يشوى ويطبخ
ولا زلت في شر العذاب مخلداً وريشك منتوف وجلدك يسلخ

ثم قالت له أخته يا قيس إن ليلى ماتت ودفنت ونخطب لك غيرها فارحم نفسك وارحمني معك.قال فنظر إلى أخته وقال لها وأنت يا هند تعازليني في ليلى أحب الناس عندي وقد احترق قلبي عليها وتغيّرت أحوالي وأصبحت شريداً في الوديان والآكام من أجل حبها. ليلى هي سر الحياة. ليلى هي الإنسانة الوحيدة التي لن أحب غيرها فهي التي

أفهمتني كنه هذا الوجود وأنه وهم لا حقيقة له وأن هذه الدنيا لا ثبات لها لقد أفهمتني لذة الحب وتصافينا معاً في عفاف وطهر. لقد ذهبت ليلى وذهبت معها الأيام التي تمتعنا برونقها الجميل.لقد ذهبت ليلى ولم تترك لي سوى ذكرى مؤلمة تثير تنهدات الأسى من أعماق صدري وانحدرت عبرات اليأس والحزن من أجفاني. ليلى إنني في كل يوم أشعر بانتهاء الحياة. وأشعر أنني على حافة القبر ولم يبق لي من الحياة إلا بعض الأيام فيها متألماً. ليلى لقد تركت لي ذكرى تمزق قلبي وتقطعه أرباً. لقد أصبحت بعد فقدك هيكلاً عظمياً وصورتني الأحزان في صورة بشعة يشوبها الهزال والنحول لقد أصبحت الحياة لا تطاق ليلى أين أنت لقد كنت بالأمس معي واليوم ذهبت وراء حجب الغيب وانطويت ضمن طيات الدهور الغابرة التي كر عليها الزمن وأقسمت أن لا تعودي. ليلى لقد أصبحت جثة هامدة بين أزهار بيضاء خيمت عليها سكينة الدهور ورهبة الأزل ثم بكى وبكت أخته معه وأقبل على أخته يقبلها ويعاتبها منشداً قوله :

وعازلـــة تقطعنـــي ملامـــة ... وفي لوم العـوازل لي بـلاء
وقالوا لو تشاء سلوت عنها ... فقـــلت لهم وإني لا أشاء
لها حب تنشب في فـؤادي ... فلـيس لها وإن زجــر انتهاء

قالت هند فما أتم هذه الأبيات إلا وقد ظهرت له ظبية فتعلق قلبه بها ووثب مسرعاً في طلبها والتفت إليّ وقال السلام عليك هذا آخر العهد بك يا هند فما أراك ترينني بعد اليوم أبداً. وانطلق يعدو ثم رجعت إلى الحي وأخبرت إخوتي وأهلي بذلك.فلما سمعوا ركبوا رواحلهم وانطلقوا خلفه يدورون عليه وقد أخذهم الجهد فبينما هم يمشون بين تلك الجبال والوديان وجدوا أمامهم خباء منصوباً فقصدوه فوجدوا فيه امرأة عجوز

فسألوها عن قيس ووصفوه لها فقالت كان يعاودني وكنت أصنع له طعاماً وأضعه له نحو تلك الشجرة فكان يأتي إليها ليأكل ما أصنعه له ويذهب وقد صنعت له طعاماً يوم أمس ووضعته كعادتي وانتظرته فلم أره وذهبت اليوم أيضاً بالطعام لوضعه له فوجدت طعام الأمس ولم أعلم عنه شيئاً. قال فذهب إخوته ومعهم ابن عمهم زياد يطلبونه في ذلك الوادي فلم يروا له أثراً وقد أمسى عليهم الليل فأناخوا رحالهم وناموا بجانبها إلى الصباح ثم قاموا وركبوا رحالهم وغدوا يطلبونه. وكان اليوم الثالث لهم وبحثوا عنه في تلك الجبال والوديان فلم يجدوا ولم يسمعوا عنه خبراً قالوا ولما آيسنا منه عدنا في اليوم الرابع طالبين الديار فبينما نحن نسير إذ مررنا بواد كثير الحجارة خشن فوجدناه ميتاً بين تلك الحجارة وكان قد خط بأصبعه عند رأسه هذين البيتين.

توسد أحجار المهامة والقفـر ومات جريح القلب مندمل الصدر
فيا ليت هذا الحب يعشق مرة فيعلم ما يلقى المحب من الهجر

قال فلما رأيناه ميتاً بين تلك الحجارة بكيناه واحتملناه معنا وعدنا به إلى الديار. فما إن وصلنا به تسامع كل من في الحي بموت قيس فحضروا وقمنا بغسله. فبينما نحن نغسله وجدنا رقعة مربوطة في ثيابه مكتوب عليها :

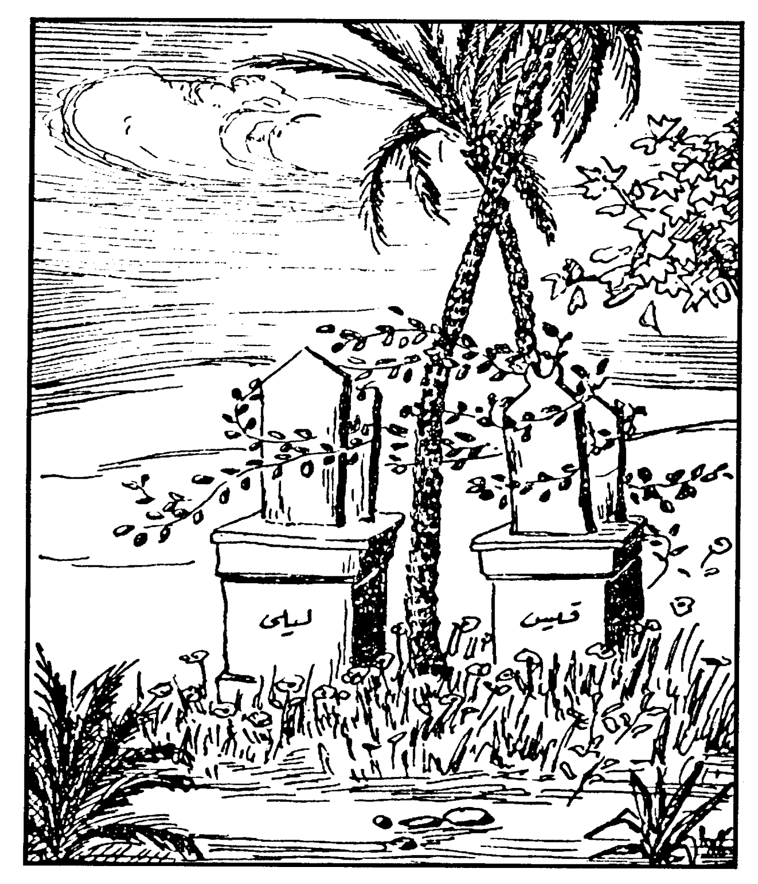
ألا أيّها الشيخ الذي ما بنا يرضى سقيت ولا هنيت من عيشك الخفضا
شقيت كما أشقيتني وتركتني أهيم مع الهلاك لا أطعم الغمضا
أما والذي أبلى بليلى بليتـي وأصفى لليل من مودتي المحضا
لأبتغين فيها رضائي ومنيتـي ولو أكثروا لومي وأكثروا القرضا
إذ ذكروا ليلى أهيم صبابـة ولم أستطع خلا لديها ولا نقضا



قيس يلقى نهاية جنوبه وهو مجندل بين الصخور ..

وحق الهوى اني أحس من الهوى ... على كبدي نارا وفي أعظمي المرضى
كأن فؤادي في مخالب طائر ... إذ ذكرت ليلى يشد به قبضا
كأن فجاج الأرض حلقة خاتم ... علي فما تزداد طولاً ولا عرضا
وأغشى فيحمي لي من الأرض ... مضجعي وأضرع أحياناً فألتزم الأرضا
رضيت بقتلي في هواها لأنني ... أرى حبها حتماً وطاعتها فرضا
إذا ذكرت ليلى أهيم بذكرها ... وكانت مني نفسي وكنت لها أرضى
وإن رمت صبراً أو سلوا بغيرها ... رأيت لكل الناس من بعدها بغضاً

قال ثم قمنا بتكفينه ودفنه ولم تبق فتاة من بني جعدة ولا بني الحريش إلا خرجت حاسرة صارخة عليه بالندب والنواح. واجتمع فتيان الحي يبكون عليه أحر بكاء وينشجون عليه أشد نشيج وحضرهم حي ليلى معزين وكان أبوها معهم فكان أشد القوم في ذلك اليوم جزعاً وبكاءً على قيس. وجعل يقول ما علمت أن الأمر يبلغ كل ذلك ولكني كنت امرئ عربياً أخاف من العار وقبح الأحدوثة ما يخاف مثلي فزوجتها وخرجت من يدي ولو علمت أن الأمر يجري على هذا ما أخرجتها عن يدك يا قيس ولا احتملت ما كان علي في ذلك. ثم طلب والد ليلى من إخوة قيس وبني عمه أن يدفنوه إلى جانب قبر ليلى فحفروا له وأنزلوه إلى جانب قبر حبيبته ورفعوا عليهما حجارة صماء مكتوب عليها قبر العاشقين. نام قيس نومه الأخير إلى جانب حبيبته ليلى وقفل تلك العينين المكحولتين اللتين بكيتا في كل جبل وواد وتحلل جسمه إلى تراب غمر تراب حبيبته ليلى ولم يلتقِ العاشقان إلا في عالم الأبدية عالم النعيم والهناء ولم يرَ يوماً كان أكثر باكية وباكياً على ميت سوى قيس. وكان ذلك في سنة ٤٩٠ من الهجرة. ولم يكن بينه وبين ليلى



النهاية الأخيرة لقصة الحب بين العاشقين قيس وليلى

إلا خمس وعشرون ليلة رحم الله العاشقين اللذين سمعت بأخبارهما جميع الأقطار فسبحان من له البقاء...

ولقد قمت بجمع هذه القصة من كتب شتى لتكون درساً أخلاقياً وفقنا الله لما يحبه ويرضاه.

من إصدرات دار الخلود



من إصدرات دار الخلود

